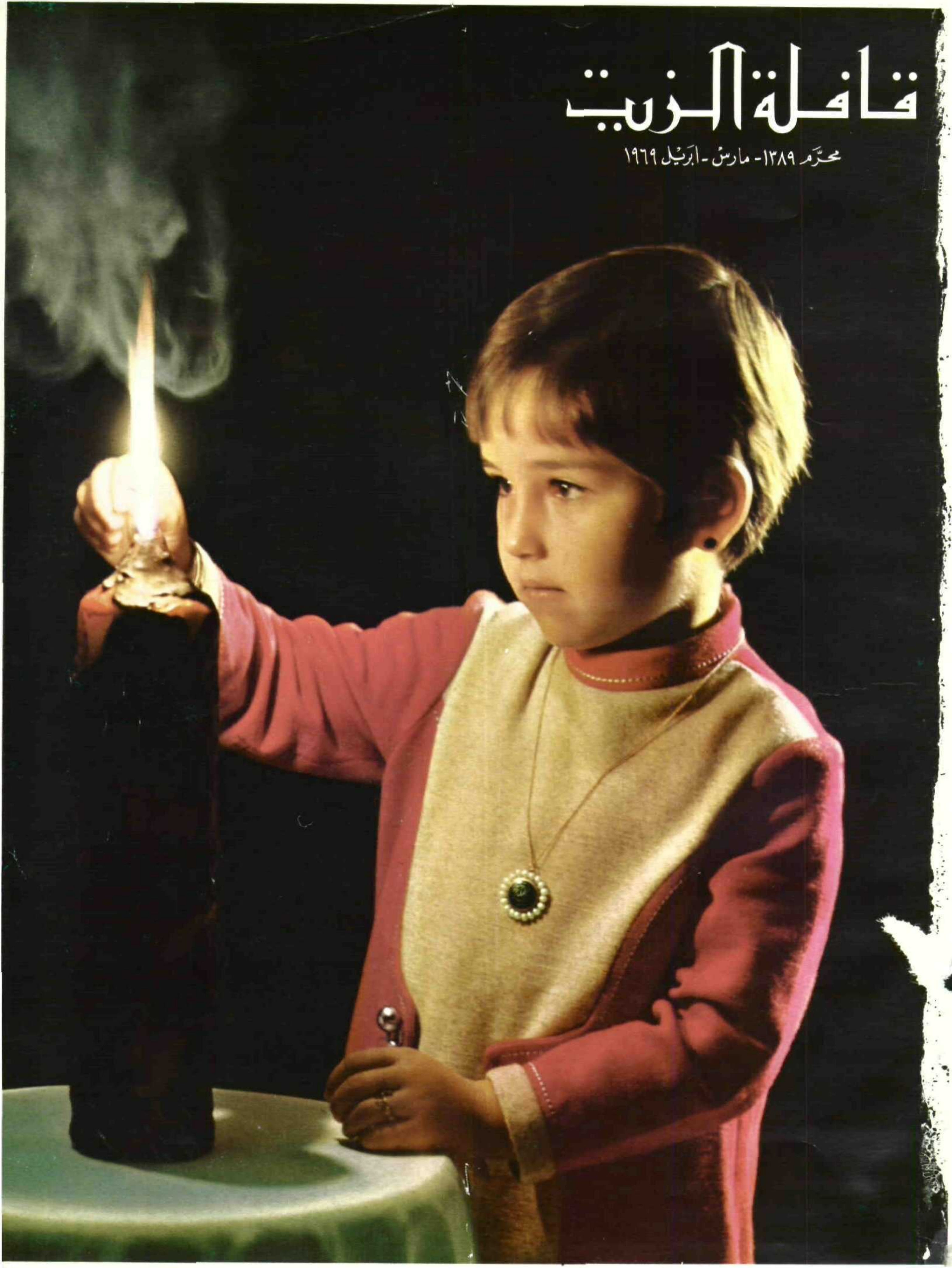

قافلة الزيت
محرّم ١٣٨٩ - مارس - ابريل ١٩٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

قافلة الزيت

العدد الأول   المجلد السابع عشر

تصدر شهرياً عن :
شركة الزيت العربية الأمريكية
لموظفي الشركة - توزع مجاناً

رئيس التحرير والمدير المسؤول منصور مدني
المحرر المساعد عوني أبو كشك

العنوان : صندوق رقم ١٣٨٩
الظهران ، المملكة العربية السعودية

صورة الغلاف



« اشراقة عام جديد »
تصوير سعيد الغامدي

مطابع المطوع
al mutawa press
P.O.B. 241, DAMMAM, SAUDI ARABIA - TEL. 4031 - CABLE ALMUTAWAPRESS - C.R. 1151

محتويات العدد

مع اطلالة عام جديد

مع اطلالة العام الهجري تعود الى الأذهان ذكرى الهجرة النبوية الشريفة وما عاصرها من أحداث تدل على عظم ما كابده الرسول الكريم والدعاة الأوائل في سبيل نشر الدعوة الاسلامية التي آمنوا بها الايمان كله ، فأكسبهم ايمانهم عزماً وثباتا ، لم يلبث معه دينهم الحق ، الذي نشأ ضعيفا على أكتاف أفراد ، أن عم معظم بقاع الأرض ، وأصبح يمثل قـوة عظمى على وجه البسيطة .. أين منها ما هو عليه الآن ؟!

ومع انصرام كل عام تزداد خبرات البشر وتتفتح مداركهم ، بمقدار ، كما يقتربون خطوة نحو النهاية المرتقبة .

والأعوام وحدات تقاس بها أعمار البشر ، فالناس دأبوا على أن يقيسوا أعمارهم بعدد مامضى عليهم من سنين ، بيد أن آخرين يقيسون أعمارهم بما يرجون أن يتبقى لهم من سنوات حياتهم التي قد تطول وقد تقصر ، معللين بأن ما قد مضى فات ، وانما العبرة في الاستفادة مما سيأتي من أيام .

وثمة فئة تربط بين أعمارها وبين الوحدات الزمنية ونتاجها من هناء وسعادة للأفراد ، أو خير وفائدة للأمة ، فالانسان في نظرها لم يخلق هملا ، وانما وجد ليؤدي رسالة معينة أو رسالات ، ان لم يؤدها فكأنه لم يوجد . وهذه الفئة لا تقيس أعمارها بالسنين – ربما لضآلة ما يصرفه الانسان من وقت على الانتاج الحق ، أو لقصر لحظات المسرة الخالصة اذا ما قارن ذلك بحياته المديـدة – ولكن تقيسها بالايام ، ما مضى منها أو ما ترجو لها البقاء .

فمن ذلك أن عبد الرحمن الناصر كان يقـرن عمره بعدد أيـام سروره ، وكان يعدها بضعة عشر يوما من أربعين سنة له على عرش الأندلس ، أجمل بقاع المعمورة آنذاك .. وما بقي من حياته كان يحتسبه ملك رعيته وأمته .

ومن ذلك أيضا أن رجلا دخل قرية مارا بمقبرتها ، فلفت نظره كتابات على شواهد قبورها ، فلما تبينها وجدها تحمل أمثال العبارة التالية : « هذا قبر فلان الذي ولد عام١٨١٣ وتوفي عام ١٨٧٦ ، وقد عاش شهرين فقط . » فوقع الرجل في حيرة من أمره ، وسأل شيخا كبيرا صادفه عن تفسير ما رأى ، فأجابه الشيخ : « اننا في هذه القرية – يا بني – نقيس أعمار الناس بالأيام التي يصرفونها فيما يعود عليهم وعلى أمتهم بالخير والفائدة ، وهي في الغالب قصيرة اذا ما قورنت بالفترة التي يقضونها في هذه الدنيا » .

وقد دأب الناس على الاحتفاء باطلالة كل عام جديد ، وحق لهم بدل الاحتفاء محاسبة أنفسهم على ما جنوا في عامهم من خير ، وما فقدوا ، وما ذلك بمرجع اليهم ما فقدوا ، الا أن تكون لهم فيه العبرة ، فيعملوا على استدراك ما فرط منهم ، والاستفادة مما كسبوا .

اذا مـر بي يوم ولم أتخذ يـداً ولم أستفد علماً فما ذاك من عمري

رئيس التحرير

اضواء على تاريخ جنوب الجزيرة العربية قبل الاسلام

بقلم : الدكتور عبد الرحمن الانصاري

إن الحديث عن تاريخ جنوب الجزيرة العربية قبل الاسلام يعني الحديث عن وضع كل دولة أو مجموعة دول الجنوب والعلاقة بين هذه الدول نفسها ، وبينها وبين جيرانها خارج المنطقة .

والحديث عن دول الجنوب يعني بالتالي الحديث عن الفترة التي سبقت ظهور هذه الدول ، وهي الفترة القبلية التي مرت بها مجموعة القبائل التي تكونت منها دول الجنوب . والحديث عن الفترة القبلية قد يعود بنا الى حوالي الألف الثاني قبل الميلاد ، وهي التي كان فيهـا المعينيون والسبئيون عبارة عن قبائل تموج شمال الجزيرة ثم جنوبها . ولا نعرف عن هذه الفترة الشيء الكثير ، ذلك ان حياتهم كانت لا تسمح بتسجيل هذه المراحل في تطور حياتهم ، كما ان الأمم التي عاش على حدودها المعينيون والسبئيون وغيرهما من القبائل لم تسجل لنا شيئا من هذا القبيل ، وربما كانت القبائل العربية في هذه المرحلة لم تتميز عن غيرها من القبائل السامية التي كانت تتنقل من مكان الى آخر .

وقد ذكرت بعض الكتب التاريخية أن «معين» كانت من جملة القبائل التي عاشت في صحراء الهلال الخصيب ، أي في المنطقة ما بين سوريا والعراق وفلسطين ، ثم لظروف أو أخرى انتقل المعينيون الى أماكن أخرى كالمنطقه التي كان يقطن بها النبطيون وشمال الجزيرة ثم جنوبها حيث كان يسكن السبئيون .

ويحاول بعض المؤرخين الربط بين اسم المعينيين وبين اسم مدينة « معان » في شرق الأردن ، وهذا الربط لا يستند على حقائق وبراهين علمية ، عدا ما جاء في أقاصيص التوراة ، وهذا لا يعني أن الأمر يخلو كلية من الحقيقة .

أما السبئيون فقد جاء ذكرهم في التوراة على أنهم أهل تجارة ، وذكرت قصة سليمان مع ملكة سبأ ، التي يعود تاريخها الى حوالي القرن العاشر قبل الميلاد . وحديثنا عن القرن العاشر لقبيلة سبأ يجرنا الى الحديث عن المدرسة التاريخية التي ترى تصعيد تاريخ الدول ، بمعنى أنها تجعله موغلا في القدم بشكل أو بآخر حسبما تمليه القرائن ، ثم تحاول ربط تاريخ هذه الدول بطريقة أو بأخرى بقصص التوراة . أما المدرسة الحديثة في التاريخ فهي تحاول التقريب أي النزول بتاريخ هذه الدول عن الفترة التي اقترحها أصحاب المدرسة القديمة ، بانين طريقتهم على وسائل أكثر دقة وعلمية ، أهمها استخدام علم الآثار .

وبالاضافة الى التوراة نجد ذكرا لدولة سبأ في الكتابات الآشورية في أعمال « سرجون » سنة ٧١٥ قبل الميلاد ، ثم في أعمال ابنه « سنحريب » سنة ٦٨٥ قبل الميلاد . وقد جاء ذكرهم في هذه الكتابات على أنهم من جمـلة القبائل والممالك التي دفعت الضرائب الى ملوك آشور . وقد ذكر المعينيون والسبئيون والقتبانيون والحضرميون وغيرهم في الكتب اليونانية والرومانية .

وحديثنا عن تاريخ دول الجنوب يجرنا الى موضوع آخر ، وهو أن بعض المؤرخين ، وخاصة من ينتمون منهم الى المدرسة القديمة ، يذهبون الى ترتيب دول الجنوب ترتيبا بحيث يلاحق بعضها بعضا ، فبدأوا بدولة معين ، ثم سبأ وقتبان ، وهكذا . ولكن الرأي السائد لدى المؤرخين المحدثين هو المعاصرة ، وهو الاشتراك الزمني بين مجموعة الممالك في جنوب الجزيرة بمعنى أن دولة معين عاشت في نفس الوقت أو قريبا من الوقت الذي عاشت فيه دولة سبأ وقتبان وحضرموت . وعندما نتحدث عن دول جنوب الجزيرة فاننا نعتمد في تأريخنا لها على الكتب السماوية ، وعلى النقوش والآثار التي جمعت عنها ، وعلى ما دوّن من تاريخها . ومن سوء الحظ أن الكتب العربية لن تعن بتاريخ هذه الدول ، عدا سبأ لورود ذكرها في القرآن الكريم ، ثم حمير ، وهذه لقربها زمنيا عن عصر الكتابة .

واعتمادنا على النقوش كمصدر من مصادر تاريخ جنوب الجزيرة يسوقنا الى الحديث عن مشاكل حدثت عند دراستها . فمن هذه المشاكل هو عدم ورود تاريخ على بعض الكتابات ، ومنها عـدم ترتيب الملوك والحكام ترتيبا زمنيـا وتسلسليا . هذا التضارب بـين أسماء الملوك وعدم ذكر التواريخ خلق تساؤلات ، من أهمها : هل كان الملك وراثيا ؟ وهل كانت هناك أكثر من عائلة تحكم في وقت واحد ؟ أم كانت هناك مجموعة من العوائل تتوالى على حكم هذه الدولة ؟ ونجد أيضا فراغات بين حكم وآخر . ولذلك بينما نجد بعض المؤرخين يختصرون الفترة الزمنية لمملكة من الممالك ، نجد آخرين يرفعونها الى أضعاف ما يراه الفريق الأول . ولذا فان ما يمكن أن نستنبطه هو أن تاريخ جنوب الجزيرة العربية خاصة لا يزال غير مستقر ، ويحتاج الى دراسات كثيرة واكتشافات أكثر لنصل الى الحقيقة أو قريب منها .

وقبل حديثنا عن تاريخ جنوب الجزيرة نود أن نحدد الفترة التي تشمل تاريخ دول هذه المنطقة وتمتد حوالي ١٥٠٠ عام، تبدأ من بداية الألف الأول قبل الاسلام وتنتهي بظهور الاسلام. ويمكننا أن نقسم هذه الدولة الى قسمين: دول ما قبل الميلاد ودول ما بعد الميلاد. وتقسيمنا هذا لا يعني انقطاع الاستمرار الزمني لهذه الدول ببداية الميلاد، ولكن الهدف من ذلك هو توضيح معالم تاريخ جنوب الجزيرة بمعالم زمنية تفرق بين دور وآخر.

دول ما قبل الميلاد

والدول التي يمكن أن توضع تحت هذا العنوان هي: دولة معين، ودولة سبأ، ودولة قتبان، ودولة حضرموت، وهذه هي أم الدول البارزة. وهناك دول أخرى ربما تبدو لنا في الوقت الحاضر أقل شأنا كدولة أوسان، ولعل الاكتشافات الأثرية تبدي لنا الشيء الكثير عنها في المستقبل.

دولة معين

دولة معين هي احدى الدول التي قامت في جنوب الجزيرة في المنطقة التي تسمى بالجوف، وكانت عاصمتها «قرنا» وهي التي جاء ذكرها في الكتب القديمة باسم «كرنا». وقد شذت دولة معين عن المنهج الذي نجد دول الجنوب قد سارت عليه، وهو البدء بعهد مكربي ثم بعهد ملكي، فما عرفناه عنها يدل على انضوائها تحت عهد ملكي فقط. وقد يكون من المحتمل أن مرت معين بالعهد المكربي، ولكنها لم تسجله لأن هذا العهد لم يكن من القوة والوضوح بحيث يفرض نفسه على تاريخها، أو أنها بدأت بعهد ملكي منذ البداية تأثرا بدول الشمال التي كانت على صلة وثيقة بهم، وخاصة دول لحيان، وممالك شمال الجزيرة التي كان بينها وبين الآشوريين صراع.

ومعلوم أن العهد المكربي هو العهد الذي يجمع فيه رئيس الدولة بين السلطة الدينية والزمنية، أما العهد الملكي فهو العهد الذي انفصلت فيه سلطة الناحية الدينية عن الناحية الزمنية.

وهناك خلاف بين المؤرخين حول زمن قيام دولة معين. والذي عليه المؤرخون المحدثون هو أن دولة معين نشأت كدولة في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، واستمرت حتى مطلع القرن الأول الميلادي. وهذا التاريخ مغاير للتاريخ الذي ذهبت اليه المدرسة القديمة وارجاع قيام دولة معين الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

وهناك مسألة أخرى نواجهها، وهي توسع دولة معين شمالا، وهو توسع اقتصادي بحت، وذلك بين القرن الثالث والقرن الأول قبل الميلاد. وعلى الأرجح أن نفوذها قد وصل الى مدينتي العلا ومدائن صالح، حيث تركت نقوشا كثيرة. وقد ظهر في هذه النقوش أسماء أربعة ملوك معينيين. وهنا تظهر المشكلة: فاذا سلمنا بالرأي الذي يقول أن دولة معين عاشت في هذه المنطقة مدة قرنين، يدل ذلك أن كل ملك من هؤلاء الملوك حكم حوالي خمسين عاما، وهذا ما نشك فيه. ولكننا يمكن أن نفسر هذه الظاهرة بأن المعينيين لم يسجلوا كل تاريخهم في هذه المنطقة، وانما نقشوا ما يتصل بالحوادث المهمة التي حدثت في هذه المنطقة.

وهناك بعض المؤرخين الذين لا يعتقدون أن وجود دولة معين في الشمال يعني انقضاء دولة «بني لحيان»، وانما حصل هناك اتفاق بين الطرفين على أن يكون للمعينيين الناحية التجارية، وأن يكون للحيانيين الجانب الاداري وتنظيم شؤون الحكم. ثم دالت دولة معين على أيدي الأنباط في الشمال، وبدأ حكم الأنباط في هذه المنطقة.

دولة سبأ:

يعتبر تاريخ سبأ أكثر وضوحا وأغزر مادة من تاريخ غيرها من دول الجنوب. والباحث في تاريخ سبأ سيجد منابع كثيرة يستمد منها أخبار هذه الدولة التي أصبح لها شأن في المنطقة، فقد ورد ذكرها في القرآن الكريم. وفي التوراة التي تحدثت عن نسلهم وصلاتهم الاقتصادية بأفريقيا وأهم السلع التي كان السبئيون يحملونها الى حوض البحر الأبيض المتوسط، وذكرت قصة ملكة سبأ وذهابها الى فلسطين. والمؤرخون اليونان أيضا كتبوا عن أخبار السبئيين واستقوا كثيرا من معلوماتهم من التجار الذين كانوا يذهبون الى أسواق اليمن من الملاحين الذين كانوا يتنقلون بالتجارة في البحر الأحمر، وقد أيدت الدراسات الحديثة ما جاء بها. ولذا استطاع المؤرخون أن يميزوا بين عهدين من تاريخ سبأ:

العهد الأول: بناء على ما تراه المدرسة الحديثة، وهو الميل الى تقريب تاريخ سبأ، يمكن تحديده بين حوالي سنة ١٥٠ و ٤٥٠ قبل الميلاد، ويمتاز بأنه كان حكما دينيا الى حد كبير وزمنيا أو سياسيا الى حد أقل، وكان حكام سبأ يتخذون لقب «مكرب»، وكانوا هم أنفسهم زعماء الكهنة في المجتمع السبئي. غير أن هذا العهد كان عهد تكوين في تاريخ سبأ عرف بالحروب الكثيرة التي تمخضت عن استقرار طويل، وتكون امبراطورية سبئية. وأشهر مكربي هذا العصر «كرب آل وتر» وهو الذي استطاع أن يخضع كل القبائل لسلطان سبأ. وما كان السبئيون يخلصون من هذه الحروب حتى بدأوا يلعبون دورا كبيرا على مسرح الحياة الدولية، وكانت عاصمة دولتهم في هذا العهد هي «صرواح».

العهد الثاني: يبدأ من القرن الخامس قبل الميلاد الى القرن الأول قبل أو بعد الميلاد على خلاف بين المؤرخين، وهذا العهد يتميز عن العهد السابق بأمور:

ان عاصمة الدولة السبئية انتقلت الى مدينة جديدة هي «مأرب» قرب صنعاء.

ان الملكية السبئية لم يعد يغلب عليها الطابع الديني.

ان الزراعة تطورت، وتنوعت موارد الثروة الاقتصادية، ونمت التجارة اليمنية، فاستطاعت مملكة سبأ أن تحتكر تجارة التوابل. وقد ظلت سبأ متفوقة في النواحي الزراعية حتى أواخر القرن الثاني قبل الميلاد، حينما خرجت بعض القبائل اليمنية، ومنها حضرموت وقتبان، على زعامة سبأ، بل أخذت القبائل المؤسسة لدولة سبأ تتنازع من أجل العرش. وفي وسط هذا الاضطراب نمت قوة قبيلة «حمير»، وهي من القبائل المؤسسة فورثت مملكة سبأ ووحدت القبائل اليمنية وأسست ما عرف بدولة «حمير».

ونظام الحكم في مملكة سبأ بعهديها لم يختلف عن روح النظم السابقة، بمعنى أن الحكم كان حكما قبليا، الملك فيه لقبيلة سبأ، بينما تحتفظ القبائل الأخرى والمدن الداخلة في طاعة سبأ باستقلالها المحلي. والقبيلة السيدة تعمل على توحيد بين المجتمعات القبلية والمجتمعات المدنية، وقد استطاعت سبأ عن طريق استغلال موارد الزراعة والتجارة أن تؤسس حلفا قبليا، وقد وصلت الحضارة في هذا العصر الى درجة عظيمة من الرقي والتفوق وبسبب استقرار الأحوال السياسية. كما تنوعت موارد الثروة فأصبحت تشكل الموارد الزراعية الى جانب الموارد التجارية. ويظهر أثر ذلك الثراء في الفن السبئي القديم

الذي امتاز بتفوقه هندسيا ومعماريا . واستطاع السبئيون أن يستغلوا الموارد الطبيعية وأن يبتدعوا نظاما معينا للاستفادة من مياه الأنهار والسهول ، فبنوا سد « مأرب » المعروف والوارد ذكره في القرآن الكريم .

دولـة قتـبـان :

تاريخ هذه الدولة يحوطه كثير من الغموض ، ذلك لأن معاصرتها لدولتين كبيرتين لهما سلطة واسعة ونفوذ كبير ، وهما دولة سبأ ، ودولة معين ، كان عاملا من عوامل عدم بروز تاريخها ، بالاضافة الى أن ما جمع حتى الآن من نقوش وما أجريت من حفريات لمعرفة تاريخ هذه الدولة لم يكن كافيا لمعرفة الكثير عنها . ولكن على الرغم من قلة المصادر عنها فقد تجمع لدينا المعلومات التالية :

كانت عاصمة مملكة قتبان هي « تمنع » ، وهي المعروفة الآن « بكحلان » التي أجريت فيها حفريات امريكية في عامي ١٩٥١ و١٩٥٣ ، وعلى هذه الحفريات استند « أولبرايت » على تأريخه لهذه الدولة وحدد قيامها بين القرن السابع والقرن الخامس قبل الميلاد بالنسبة لعهدها المكربي ، وهو معاصر لتاريخ العهد الأول لدولة سبأ . أما العهد الثاني فيقع بين القرن الخامس والقرن الأول قبل الميلاد . وفي هذا العهد لم يعد يغلب على الدولة الطابع الديني . أما « جاكلين بيرين » فقد أرخت لقيام هذه الدولة بين عامي ٤٥٠ و ١٨٠ قبل الميلاد ، على أن ينتهي العهد الأول لها حوالي عام ٣٠٠ قبل الميلاد . أما « فيليب حتي » و « موسكاتي » فقد أرخا لقيام دولة للقتبانيين ما بين عامي ٤٠٠ و ٥٠ قبل الميلاد .

وعلى الرغم من أن المؤرخين الثلاثة يميلون الى تقريب فترة دولة قتبان ، الا أننا نرى أن التأريخ الذي اقترحه « أولبرايت » أقرب الى الواقع ، وخاصة اذا ما سلمنا بوجود عهد مكربي لدولة قتبان شبيه بالعهد المكربي لدولة سبأ ، بالاضافة الى أن تاريخ « أولبرايت » يعتمد على حفريات أثرية وفحوص معملية .

وكانت مملكة قتبان تقع شرقي منطقة عدن ، ولا نستبعد أن تكون هذه الدولة قد وصلت الى مرحلة كبيرة من التفوق في مجال الحضارة والرقي . وقد عرف عنها تجارتها في التوابل ، كما عرف عنها رقيها المعماري وهندستها في المباني ، وحفرها القنوات واتباعها أسلوبا متطورا في الزراعة . وهذا ما تشهد به حفريات « تمنع » . وقد جاء ذكر دولة قتبان في الكتب اليونانية على انها احدى الدول ذات النشاط التجاري بين القرن الخامس والقرن الأول قبل الميلاد .

أما بالنسبة لما رواه العرب عن حضارات الجنوب فاننا لا نجد فيه شيئا عن دولة قتبان . ولا نستطيع أن نعلل هذه الظاهرة الا بأن هذه الدولة قد انتهت قبل الميلاد ولم يكن لها دور قيادي في جنوب الجزيرة ، لذلك لم تعش أخبارها كما عاشت أخبار سبأ . ومن تاريخ دولة قتبان نستطيع أن نعرف انها قد تعرضت لاحتلال سبئي ومعيني من آن لآخر ، الا أنها كانت تدفع عن نفسها هذه الغارات في كثير من الأحيان .

مملكـة حضرموت :

المشكلة التي واجهناها بالنسبة لتحديد زمن مملكة قتبان هي التي تواجهنا أيضا بالنسبة لدولة حضرموت ، والأسباب هي الأسباب نفسها لأن ندرة النقوش التي تحدثنا عن تاريخ مملكة حضرموت تاريخا مفصلا يجعلنا لا نستطيع أن نحدد فترتها التاريخية وان نعيق تسلسل ملوكها .

وقد حدد « موسكاتي » تاريخ مملكة حضرموت ما بين ٤٥٠ قبل الميلاد ونهاية القرن الثاني الميلادي ، وحدد « أولبرايت » تاريخها ما بين عام ٤٥٠ قبل الميلاد والقرن الأول قبل الميلا د . أما « جاكلين بيرن » فانها على الرغم من أنها لم تحدد فترة معلومة لدولة حضرموت فانه يمكن الاستنباط ، من خلال نقاشها ومن خلال دراستها لحروف جنوب الجزيرة انها أرخت لتاريخ حضرموت الفترة نفسها التي أرختها لدولة قتبان .

وقد جاء ذكر دولة حضرموت في كتب اليونان على انها احدى الدول ذات التجارة والاتصال بالعالم الخارجي ، وقد صاحبت هذه الأخبار صورة نقلت عن التوراة ، وهي أن كلمة حضرموت تعني « وادي الموت » ، وانتقلت هذه الفكرة الى العرب ، كما ذكر ذلك ياقوت عن ابن الكلبي . وقد جاء ذكر حضرموت في النقوش المعينية وفي النقوش السبئية وذكرها في هذه النقوش يدل على أن هناك علاقات يمكن أن تعلل بأنها علاقات حربية في المكان الأول ، وعلاقة تجارية وثقافية في المكان الثاني .

وعاصمة مملكة حضرموت هي « شبوه » . وقد كان لدولة حضرموت دور تجاري في جنوب الجزيرة ، ليس برا فقط ، وانما أيضا عن طريق البحر . ولا نشك في أن سفنها كانت تنقل بضائع من الخليج الغربي ، ومن بلاد الهند ، ومن شرق أفريقيا . ومن أهم حاصلات بلاد حضرموت اللبان ، والبخور ، والمر . ومن خلال دراستنا للنقوش وجدنا اسم « سن » وهو يرمز الى القمر الذي كان يعبده الوثنيون المتخلفون . ووجود اسم « سن » في جنوب الجزيرة يعطينا فكرة عن العلاقات الوطيدة بين جنوب الجزيرة وبين بلاد الرافدين . ويرجح أن التجارة التي كان يقوم بها الحضرميون الى منطقة بلاد الرافدين جعلتهم ينقلون اسم « سن » الى منطقتهم . ولا يستغرب ذلك اذا عرفنا أن القمر هو أحد العوامل التي تساعد البحارة على سلوكهم ليلا .

دول ما بعد الميلاد

دولـة حمير :

كانت تجارة الهند الرابحة تنقل بحرا حتى شاطىء حضرموت ، ثم تنقل برا من هذا الشاطىء على ظهر القوافل حتى مدينة مأرب عاصمة سبأ ، ثم الى مكة ، ثم الى أسواق حوض البحر الأبيض المتوسط . ولكنه حدث تغيير في طريق التجارة ، فأصبحت السفن تجتاز البحر الأحمر ، وتركت الطريق البري ، وكان انتقال التجارة على هذا النحو سببا في ضعف مملكة سبأ لأنها حرمت من هذا المورد العظيم . وأخذت التجارة البحرية الجديدة تؤول الى شعب آخر يقع على ساحل البحر الأحمر مباشرة ، وهو شعب حمير . ونحن نعرف أن قبيلة حمير هي احدى العناصر المكونة لحلف سبأ ، ومن ثم لمملكة سبأ . وكان هذا العامل الاقتصادي من أهم العوامل التي ساعدت على قيام ما عرف بدولة حمير ، كما ساعد على بسط سلطانها على مناطق متعددة في جنوب الجزيرة العربية ، فورثت ملك سبأ ، واتخذت لنفسها اسما ، هو ما عرف بمملكة « سبأ وذوريدان » .

ويمكننا أن نعتبر هذه المرحلة من المراحل التاريخية في جنوب الجزيرة العربية مرحلة ثالثة أو عهدا ثالثا من عهود الحكم السبئي . وبهذا يمكننا أن نتصور التطور الذي حدث على نظام الحكم في مملكة سبأ ، اذ ابتدأ بالعهد المكربي ، ثم بالعهد الملكي ، وانتهى الى هذا العهد الذي يفهم منه ضعف سيطرة قبيلة سبأ ، وعدم قدرتها على الاستمرار في الحكم كقاعدة للحلف السبئي ، ولكنها بما لها من مكانة استطاعت أن تحتفظ باسمها وان سلمت الدور القيادي لقبيلة أخرى ، هي قبيلة حمير .

ويظهر أن الحميريين قد تفوقوا في التجارة البحرية الى حد بعيد ، حتى أصبحوا سادة البحر

الأحمر في هذا الميدان . وقد حاول بعض المؤرخين المقارنة بين الحميريين والفينيقيين ، فكلمة حمير في نظرهم مشتقة من الحمرة ، وهي طابع الشعوب السامية والفينيقيون أخذوا اسمهم من « فونيكس » ومعناها أيضا حمرة اللون ، واستنتجوا من ذلك أن هناك صلة بين الحميريين والفينيقيين القدماء في النسب ، للتشابه في هذا التفوق البحري الذي وصل اليه الحميريون كما وصل اليه الفينيقيون . ولكن هذا النشاط البحري ليس بغريب على شعوب جنوب الجزيرة ، وهم الذين سيطروا سيطرة تامة على البحر العربي ، وعلى التجارة القادمة من الهند ومن شرق أفريقيا ومن بلاد النهرين عن طريق الخليج العربي . ولذلك لا نستبعد أن يستمر هذا النشاط البحري في دول الجنوب ، وخاصة ان مصدر رزقهم أصبح يعتمد الى حد كبير على الملاحة البحرية . فلا بد لهم أن يتقنوا هذا النوع من وسائل التجارة والا تعرضوا لخطر الاندثار كما اندثرت دول الشمال رويدا رويدا اثر تحول الطريق التجاري من البر الى البحر .

وهناك نقاش طويل بين المؤرخين حول بداية تاريخ مملكة حمير ، وذلك لعدم قدرتهم على معرفة آخر ملك سبئي وأول ملك حكم من قبيلة حمير . وقد أوصل بعضهم بداية تاريخ دولة حمير الى القرن الأول الميلادي ، ولكن عامة المؤرخين يميلون الى تحديد بدايته من عام ١١٥ قبل الميلاد . وكثير من المؤرخين يعتقدون أن « ذوريدان » اشارة الى قتبان وان كنا نشك في ذلك بعض الشك لأنه لا مانع من أن تحتفظ قبيلة قتبان باسمها في الحلف الجديد ، كما فعلت مملكة حضرموت فيما بعد ، ومملكة سبأ من قبل . واذن فمن المحتمل أن تكون «ذوريدان » هي احدى القبائل التي كان لها دور في تكوين هذا الطور الجديد من أطوار مملكة سبأ ، والتي فرضت على النظام الجديد اسمها . وصلة النسب والدم بين قبيلة حمير وبين الممالك العربية السابقة ، وفي مقدمتهم مملكة سبأ ومملكة معين ، جعلت قبيلة حمير ترث ملكهم وثقافتهم ، بل وتجاربهم . كما ان لغة حمير وكتابتها لا تختلف كثيرا عن عن لغة سبأ ومعين وكتابتهما . وكانت عاصمة مملكة حمير هي « ظفار » شمال شرقي ميناء « مخا » الميناء الذي يقع على البحر الأحمر . وحلت هذه العاصمة الجديدة محل « مأرب » عاصمة سبأ و « قرنا » عاصمة معين ، ولا زالت آثارها باقية بالقرب من مدينة « ياريم » .

ومنذ حوالي سنة ٣٠٠م أصبح اسم مملكة سبأ كما يلي : « مملكة سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنة » ، ثم تطور الاسم بعد ذلك بسنوات قليلة الى اسم « مملكة سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنة وعربهم في الجبال وتهامة » . وقد غزا الأحباش المنطقة ما بين سنة ٣٤٠م وسنة ٣٧٨م ، وأطلق على ملك حمير بعدئذ اسم « ملك السدم وحمير وريدان وحبشه وسلم وتهامة » . وهذا ليس أول غزو حبشي للمنطقة بل سبقته غزوات في القرن الثاني والثالث الميلاديين ، ولا يستبعد أن يكون الأحباش قد استقروا في المنطقة بعض الوقت .

وكانت بلاد اليمن أو جنوب الجزيرة مقسمة الى اقطاعيات كبرى ، كل واحدة منها لها حصن كبير يحميها ويدافع عنها ، وعلى رأس كل اقليم منها رئيس عرف عند العرب « بتبع » . وعرف من بين هؤلاء التبابعة « أبوكرب أسعد كامل » الذي حكم بين سنة ٣٨٥ وسنة ٤٢٥م . وتعزو الكتب العربية الى هذا التبع أخبارا كثيرة عن فتوحاته ، فقد ذهب شرقا حتى حدود الصين ، وشمالا الى بلاد القوقاز . وكل هذه أحاديث لا يمكن تصديقها ، ولا نعرف مصدرها ، الا أن يكون خبر التبابعة قد وصل الى العرب عن طريقين ، اما عن طريق الرواية ، أو عن طريق القبائل العربية التي هاجرت من الجنوب ، والتي كونت مملكة « كندة » في وسط الجزيرة العربية و « الغساسنة » في الشام و « المناذرة » في العراق . ومصدر ثالث يمكن أن يكون العرب قد استقوا منه أخبارهم ، وان لم تكن دقيقة ، كل الدقة ، وهي النقوش التي كان يعرفها بعضهم . وكل ما يمكن أن تدلنا عليه هذه الروايات ، أو ما صح منها ، هو بعض أسماء هؤلاء التبابعة .

ويبدو أن الحميريين قد استفادوا من التجارب السابقة التي مرت بها الممالك القديمة ، وتحصنوا داخل قلاعهم التي سماها العرب بالقصور . وقد انتشرت هذه القصور في اليمن في العصر الحميري ، حتى عرفت عند العرب ببلاد القصور . وقد بقيت هذه القصور حتى عهد المؤرخ « الهمذاني » ، فوصف أطلالها ، وقال انها كانت تتألف من عشرين طابقا ، وكان ارتفاع كل طابق عشرة أذرع ، وقد بنيت من الرخام والجرانيت ، وكانت لها أربعة أوجه لكل وجه لون خاص .

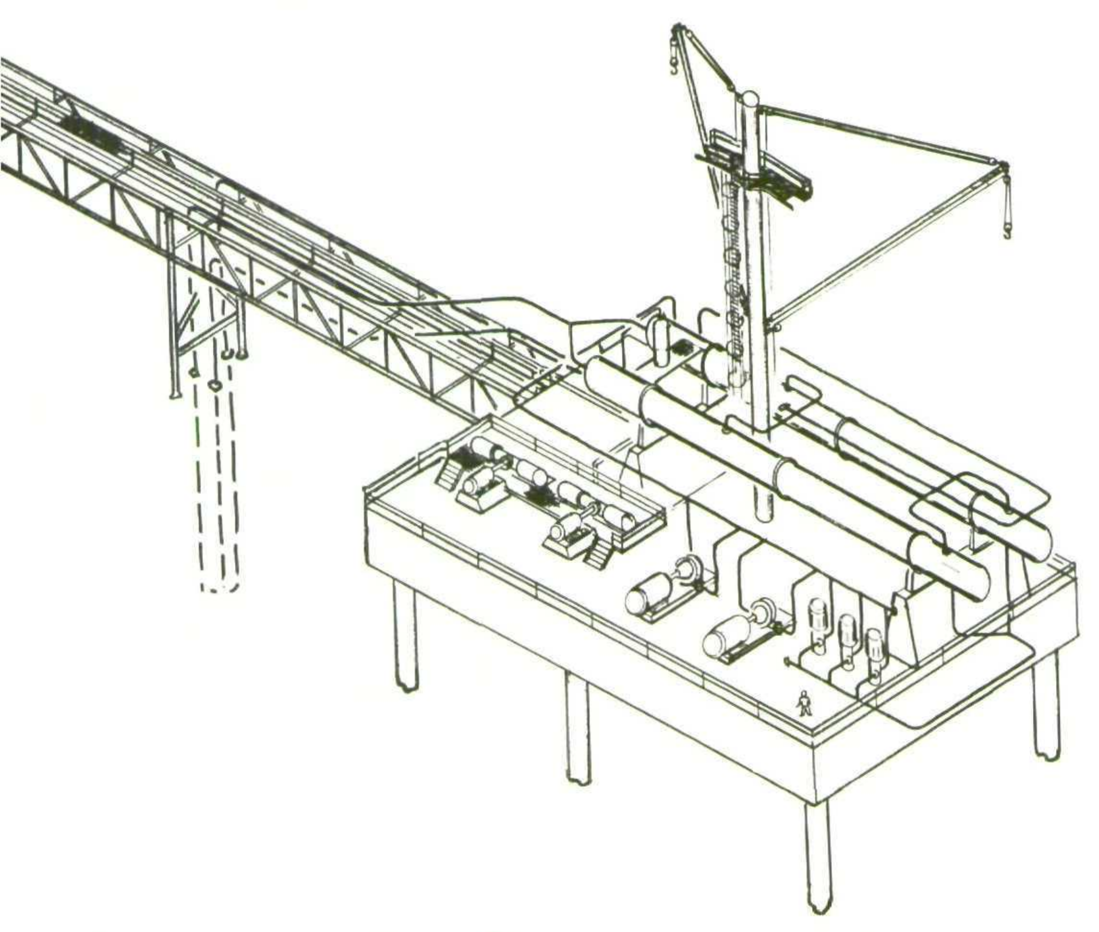
غير أن هذا الرخاء الذي صاحب ملك الجنوبيين لم يدم طويلا ، بل بدت بعد فترة ظواهر تنذر بنهايته . وذلك أن الحميريين عندما سيطروا على الطريق التجارية ، واحتكروا تجارة التوابل والبخور ، كانوا قد رفعوا أسعارها ، وفرضوا عليها الضرائب الباهظة . ولما كان العالم القديم لا يستطيع الاستغناء عنها ، لذلك عمدت بعض الدول الى أن تتدخل في هذا الميدان التجاري وتقضي على هذا الاحتكار .

ويرى المؤرخون أن دخول الرومان الى ميدان الملاحة في البحر الأحمر كان من أهم الحوادث في العصور القديمة . وقد طمع الرومان في انتزاع هذه التجارة بصفة نهائية من يد العرب ، ففتحوا الشرق الأدنى ، واستولوا على رؤوس الأموال والأسواق الهامة وطرق التجارة ، وحولوا الطريق البري منها الى البحر . وبهذا فقد الحميريون موردا من موارد الرزق . ثم ظهر عامل آخر ، وهو النزاع بين الفرس والروم ، وقد ظهر بصورة واضحة بعد قيام الروم بفتوحاتهم الأخيرة . وكان هدف روما هو ضم بلاد العرب الى مجموعة ممتلكاتها .

والعامل الثالث كان عاملا دينيا ، فقد اعتنق الأحباش النصرانية ، مما أدى الى تحالفهم مع البيزنطيين أو الرومان بشكل عام ، ووقوفهم جنبا الى جنب في وجه النفوذ الفارسي . وقد وجد هذا الحلف الحبشي البيزنطي فرصة للتدخل في شؤون اليمن ، وذلك بأن حدث صراع بين النفوذ اليمني وبين النفوذ الحبشي المسيحي البيزنطي على أثر تنكيل اليهود اليمنيين بالمسيحيين في مذبحة « نجران » التي جاء ذكرها في القرآن الكريم « أصحاب الأخدود » ، فدفعت الدولة البيزنطية الأحباش الى غزو البلاد سنة ٥٢٣ ميلادية ، وأمدوهم بالسفن اللازمة التي نقلت قواتهم الى بلاد اليمن ، فدخلوا مدينة صنعاء ونجران ، وقضوا على الدولة الحميرية .

ثم ظهرت الوطنية اليمنية مرة أخرى بقيادة « سيف بن ذي يزن » الذي استطاع أن يتحالف مع الفرس ، ويستعين بهم على طرد الأحباش ، غير أن بلاد اليمن لم تتخلص من النفوذ الحبشي الا لتقع تحت النفوذ الفارسي . واستمر هذا النفوذ حتى سنة ٦٢٨ ميلادية حينما اسلم عامل الفرس على اليمن ، ودخلت بلاد اليمن تحت لواء الدولة الاسلامية ، واستطاع عرب الشمال أن يوحدوا شعوب الجزيرة تحت راية الاسلام الذي جمع قلوبهم على التوحيد والخير السلام ■

معمل عائم لفرز الغاز من الزيت



شهدت المنطقة المغمورة في السفانية خلال السنوات القليلة الفائتة نموا مطردا في أعمال التنقيب ، وتطورا ملحوظا في مرافق الانتاج والمعالجة .

وكان من أبرز هذه التطورات اجتلاب شركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) معملا عائما لفرز الغاز من الزيت واقامته في بقعة تبعد ٤٥ كيلومترا الى الشمال الشرقي من حقل السفانية في مياه الخليج العربي ، ليسهم الى جانب معامل الفرز الأخرى القائمة في المنطقة المغمورة ، في مواجهة الطلب المتزايد على زيت السفانية الغني بزيت الوقود الذي تحتاج اليه الصناعات الثقيلة ، ورفع الطاقة على الانتاج في تلك المنطقة .

وقد وصلت هذه الوحدة المتكاملة الأجزاء التي استغرق بناؤها نحو ثمانية أشهر ، والتي قامت بصنعها شركة « سابيبو » اليابانية للصناعات الثقيلة ، في منتصف مايو ١٩٦٨ بعد رحلة استغرقت زهاء ٤٥ يوما .

وهذا المعمل العائم ، الذي يعتبر أول معمل من نوعه تملكه أرامكو في المنطقة المغمورة ، هو عبارة عن منصة ضخمة مزودة بالأجهزة والمعدات الرئيسية الخاصة بعملية فرز الغاز من الزيت . وهذه المنصة بدورها ، تتكون من منصتين يبلغ طول احداهما نحو ٤٠ مترا وعرضها نحو ٢٤ مترا . والأخرى يبلغ طولها نحو ٢٨ مترا وعرضها نحو ٢٤ مترا . وقد أضيفت الى هاتين المنصتين منصة ثالثة خاصة

رسم تخطيطي لمعمل فرز الغاز من الزيت العائم لدى اتمامه .

المعمل العائم لدى وصوله الى فرضة السفانية قبل القيام بتركيب أجزائه .

بمرافق السكن . وترتكز هذه المنصات الثلاث على احدى عشرة دعامة تزن نحو ٧٧٠ طنا ، ويربط بعضها ببعض ممرات فولاذية صنعت خصيصا لهذا الغرض .

والغرض الرئيسي من اقامة هذا المعمل العائم ، الذي تبلغ طاقته ٤٥٠٠٠٠ برميل يوميا ، ووزنه الكلي ٤١٠٠ طن ، انجاز عملية فرز الغاز من الزيت الخام المتدفق من الآبار الواقعة شمالي السفانية بشكل أسرع ، والسماح لكميات أكبر من الزيت بالتدفق عبر خطوط التجميع الرئيسية ، وبالتالي رفع الطاقة على الانتاج في حقل السفانية بمقدار ١٠٠٠٠٠ برميل يوميا .

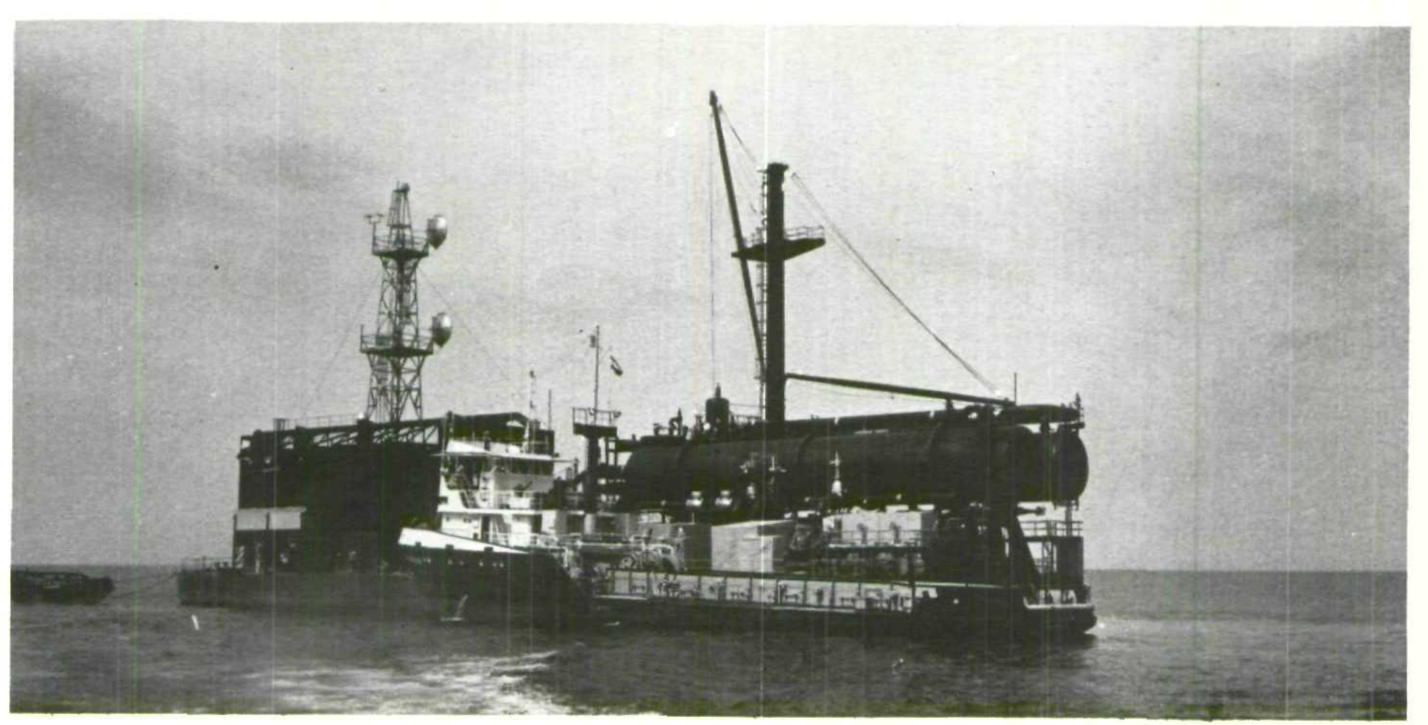
والمعروف أن حقل السفانية يعتبر أكبر حقل مغمور بالماء في العالم ، وأول حقل مغمور تم اكتشافه في الشرق الأوسط ، اذ يبلغ ما ينتجه يوميا نحو نصف مليون برميل ، ويتميز زيته عن غيره من حقول المملكة العربية السعودية بعدم احتوائه على غاز كبريتيد الايدروجين وباحتوائه أيضا ، على نسبة عالية من زيت الوقود الذي ازداد الاقبال عليه مؤخرا في الصناعات العالمية الثقيلة .

هذا ومن المتوقع أن يباشر هذا المعمل العائم الجديد عمله في أواخر مارس ١٩٦٩ ■

عوني أبو كشك



المنصة الخاصة بمكاتب الموظفين وقد جرى فصلها عن المنصة الرئيسية ، للمعمل العائم .



منظر آخر لمعمل فرز الغاز من الزيت ، ويبدو بمحاذاته القارب « ليدي سيسلي » الخاص بتزويد العاملين على المعمل بالمؤن . تصوير : شيخ أمين

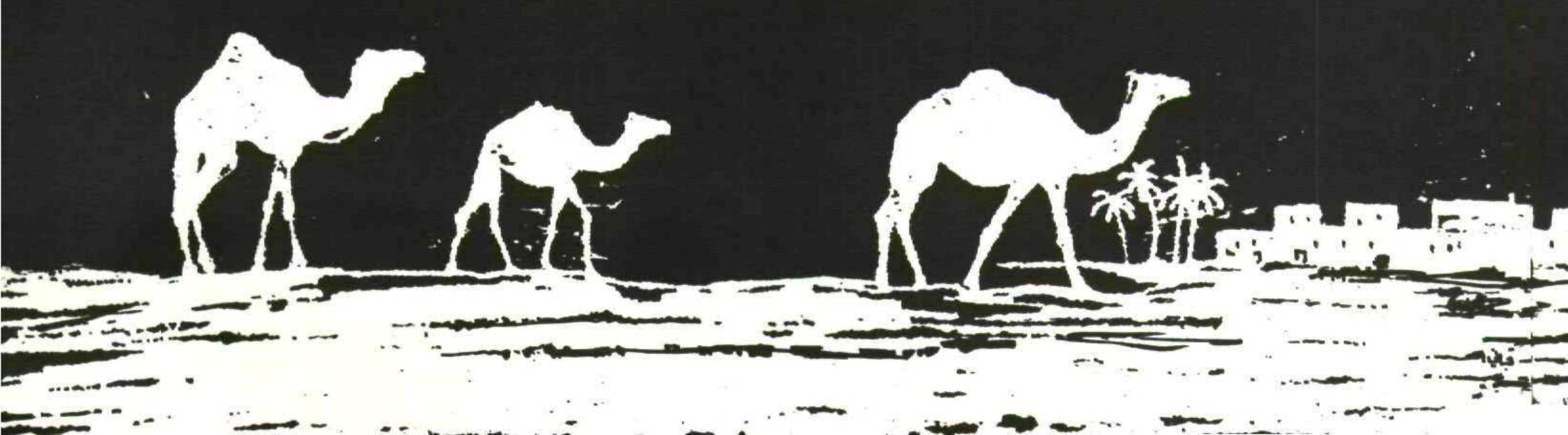
درس من الهجرة النبوية

للشاعر محمد عبد الغني حسن

أيها المنتقل المرتحل … في سبيل الله هذا المثل
لا تضيق الأرض يوما بامرىء … قلبه في دينه مشتعل ..
قل لمن قد رحلوا عن أرضهم … لستم أول قوم رحلوا
لكم الأسوة عند المصطفى … ولكم فيه المثال الأمثل
ابن عبد الله لم يصبر على … عنت الأهلين لما استرسلوا
ترك البيت وما فيه الى … منزل شدت اليه الرحل
ما بقاء الحر في أوطانه … ان جفا الأهل وجف المنهل ؟؟
لو نبا المنزل يوما بامرىء … فله في كل صقع منزل
في رحاب الأرض ، في أكنافها … موطن متسع أو موئل
يا ابن عبد الله هاجرت على … موسم[1] نيرانه تشتعل
وهج الصحراء فيه جذوة … ولهيب القيظ فيه شعل
أنت والصديق في الدرب الذي … لم تكن تفضي اليه السبل
وعيون القوم من خلفكما … زاغ منها لحظها والمقل
هي في أثركما باحثة … يتعناها السواد المقبل
علها تشفي الذي في صدرها … ومن الأحقاد ما قد يأكل
أو لعل النوق أغرت طامعا … بات في جعل قريش يأمل
لك في الغار على وحشته … أنس في جوفه مكتمل
جاء فتيان قريش نحوه … وبأيديهم يموج الأسل[2]
همهم لو ظفروا منك بما … يشتفي الحقد به والدخل
سألوا كل حصاة عنكما … والحصا – والله – منهم أعقل !
من يكن حارسه الله فما … لعدو فيه يوما مأمل
كنت في الغار على بينة … أنك الآمن مهما فعلوا
ثقة أن الذي ينصره … قاهر الطاغوت لا ينخذل
فزع الصديق لما سمعت … أذنه في الغار صوتا يسأل
لم يروا بالقرب الا راعيا … سألوه ، وهو منهم أجهل
وأبو بكر على صاحبه … مقبل خوفا ، فلا ينفتل
ملصق بالنفس من صاحبه … وهو بالله هنا منشغل
أيها البادىء في هجرته … وحدة سمحاء لا تنفصل
شهدت يثرب مذ وافيتها … للتآخي موقفا لا يغفل
أنت آخيت لمعنى حافل … فيه للأمة معنى أحفل
لم تكن تقصد فيه حاضرا … قصدك الحاضر والمستقبل

---

(١) كانت الهجرة في خلال شهر تموز « يوليو » وهو على ما هو عليه من شدة القيظ في صحراء الجزيرة .
(٢) روت كتب السيرة أن فتيان قريش أحاطوا بغار ثور وفي أيديهم السيوف والهراوي والعصي .



الأدبُ اليسَير والأدبُ العسَير

بقلم الاستاذ محمود الشرقاوي

الأصل في الأدب أن يكون للافصاح والابانة أي ان الكاتب لديه شيء يريد أن يقوله ، أي يفصح عنه ويبيّنه للقارىء .

فاذا رجعنا الى معاجم اللغة وجدناها تقول ان من معاني الافصاح الطلاقة والحسن : « لسان فصيح » أي « طلق » ، واللفظ الفصيح ما يدرك حسنه السمع ، ويقولون « يوم مفصح بلا غيم » و « استبان الصبح » أي ظهر ، ولا يمكن أن يكون العسير من الكلام طلقا ولا المقيد طليقا ولا حسنا .

وتقول المعاجم ان من معاني البيان الظهور والوضوح ، « فلان أبين من فلان » أي أفصح منه وأوضح كلاما ، ويقولون : « البيّن الفصيح » و « بان الشجر » بدا وظهر ، ولا يمكن أن يكون العسير من الكلام بيّنا ولا ظاهرا ولا واضحا .

ولذلك وصف القرآن الكريم بأنه بيان : **« هذا بيان للناس ولينذروا به »** ، ووصف بانه « الكتاب المبين » ، ولا يكاد يجد القارىء العربي في أسلوبه مشقة ولا عسرا الا أن يكون عاجزا عن الفهم .

كان هذا هو الأصل عندما كانت اللغة العربية يكتبها البلغاء الفصحاء المبينون .

ثم جرت على الأمة العربية وعلى أسلوب الكتابة العربي أحداث فكرية جعلت هذا الأسلوب الفصيح البيّن اليسير يتحول الى العكس والنقيض ، وأصبح الكتّاب لا يجدون « الفصاحة » الا في المحاكاة وتعقيد الأسلوب والاغراق في المحسنات وابراز المقدرة اللفظية والتفصّح ، وهي سمات سادت أسلوب الكتابة العربية في عصور الركود الأدبي والفكري .

واذا قلنا أن هذه السمة من التعسير والولوع بالاغراب خاصة من الخواص الأدبية لتلك العصور التي ذكرناها ، فليس معنى ذلك انا لا نجدها في العصور الأخرى ، بل هي موجودة عند أناس آخرين عاشوا في عصور الأدب العربي الزاهرة ولكن على نطاق ضيق .

فالمتنبي مثلا — وقد عاش في فترة من أزهى فترات الأدب العربي يقول في وصفه لأخلاق المرأة هذا البيت :

فان عشقت كانت أشد صبابة
وان «فركت» فاذهب ، فما في فركها قصد

يريد أن يقول أن المرأة تحكمها عاطفتها الحادة الجامحة ، فان أحبت كان حبها قويا جارفا ، وان كرهت كان كرهها قويا جارفا ، فمن الخير أن تتجنبه وتذهب عنها ، فيترك المتنبي كلمة « كرهت » المعروفة السهلة الى « فركت » الغريبة ، والوزن يستقيم بكرهت كما يستقيم « بفركت » هذه .

ولكنه الاغراب والتفاصح واظهار المقدرة اللغوية وكثرة المحصول من مفردات اللغة .

وقد دام هذا الفهم الخاطيء فترة طويلة حتى أوائل هذا القرن العشرين فنجد الشيخ « ناصيف اليازجي » ، مثلا يؤلف في منتصف القرن التاسع عشر كتابه « مجمع البحرين » على نسق مقامات الحريري ، ونجد أمير الشعراء شوقي يؤلف بعد ذلك كتابه « أسواق الذهب » على نسق كتابي « أطواق الذهب » للزمخشري و « أطباق الذهب » للأصفهاني ، والتقليد بين الثلاثة واضح في الأسلوب والعسر والتسمية أيضا .

ونجد من كتب ذلك العصر ونسقه كتابي « ليالي سطيح » للشاعر حافظ ابراهيم و «حديث عيسى ابن هشام » للمويلحي .

لا ننكر أن لهذه الكتب وأمثالها قراء يدافعون عنها ومعجبون يلذون قراءتها ، ولكنهم ، بلا شك ، أصبحوا قلة في بلادنا العربية ، ومن حججهم في الدفاع عنها أن فيها « حصيلة » لغوية كبيرة

تعين المبتدىء على تعلم الأدب كما تعين الكاتب على أن يجد أمامه « مفردات » كثيرة يتخيّر منها ، ومن حججهم أن قراءة هذه الكتب « رياضة » ذهنية ومظهر من مظاهر البراعة والبريق.

لست متحيزا للجديد من الأدب لأنه جديد .

فأنا أقرأ « الجاحظ » — و « البيروني » مثلا فأجد فهمهما أيسر من فهم كثير من الكتب التي ألفت في هذه العصور الضحلة من الأدب . وان جاءت بعدهما ، حتى لو كانت معاصرة ، فوق ما عندهما من فهم وادراك وذكاء وحصيلة أدبية وعلمية .

المقامات والسجع

يعتقد بعض الناس أن السجع قرين التعقيد وعسر الأسلوب ، لذلك يزهد في قراءته ويراه طابعا للأدب الذي يسميه هذا البعض « بالأدب القديم » و « المقامات » من الأدب الذي يلتزم فيه كاتبوه السجع ، لذلك اقترن في أذهان كثيرين بالعسر والمشقة ، وما أعتقد أن الأمر كذلك ، فأي عسر وأي مشقة يجدها القارىء العادي في مثل هذا الأسلوب المسجوع الذي نجده في مقامات الحريري وهو يصف حاله — في ظرف ولباقة وصدق — عندما فقد « المحبوب الأصفر » الذي يريد به « الدينار » : يقول الحريري (... فمذ اغبرّ العيش الأخضر ، وازورّ المحبوب الأصفر ، اسود يومي الأبيض ، وابيض فودي الأسود حتى رثى لي العدو الأزرق ، فحبذا الموت الأسود) .

وفي الأدب المعاصر نجد أسلوب المرحوم « الأستاذ أحمد حسن الزيات » مثلا لليسر مع الصحة والجزالة والتزام السجع اذا لم يكن مفتعلا أو ثقيلا .

ونجد في أسلوب الدكتور طه حسين مثلا للسهولة مع الحلاوة التي لا تخلو من تكرار سببه أنه يملي ولا يكتب .

ولكي يدرك القارىء الى أي مدى بلغ اغراب بعض الملتزمين لمبدأ العسر في الأدب العربي ، أذكر هنا على سبيل المثال نماذج لأسلوب ذلك العصر وخصائصه :

○ (.. قال انزل بنا هنا ، والليل يوارى «حضنا» فنزلنا الى أن استوهن الليل .. واذا « رجب » على شيظمة من جياد الخيل ، تندفق به كعارض السيل ، وهو بين ذلك ينادي الليل واهضام الوادي ، واستمر يعدو الهملجة ، على مهرته السملّجة ، فما أدركناه الا وقد اشمخر الضحى ، وكلت الخيل من الوحى ، فنزلنا جميعا عن السروج ، في بعض تلك المروج ، حتى اذا انجاب بهر الأنفاس ، وثاب أشر الأفراس ، ثار « رجب » كالرئبال ، وقال لا تقسط على أبي حبال ، وترك القوم يكسرون عليه أرعاظ النبال ...) .

○ (اللسان مضغة في عظم ، سماها الناس اللسان ، وعظموها لفضيلة البيان ، فقوّموها بنصف الانسان ، عضل نبت من الحلقوم وقناته ، وثبت في أصل لهاته ، ولبث في السجون ظمء حياته لا يتحرك منه سوى شباته ، رسول العقل في النقل ، وأداة الدماغ في البلاغ ..) .

○ (إيّاك والتحام الزحام ، ما يعطي زحام لحام ، كم حول الحمى حام حام ، والقسام قد سام سام ..(١) .

تناولت ، بمحض المصادفة ، كتاب « يتيمة الدهر » للثعالبي ، وأردت أن أعرف تاريخ طبعه ، فقرأت في ختام الجزء الرابع هذه الفقرة العجيبة : (.. وقد كان الفراغ من طبعه الميمون ، وترصيف جوهره المصون في أواسط العقد الثاني من العقد التاسع من العقد الثالث من العقد الأول من العقد الرابع من العقد الثاني من هجرة المصطفى ... الـخ) .

فماذا فهمت أنا أو فهمت أنت من هذا الكلام ؟ اني لم أعرف منه هذه الحقيقة البسيطة الساذجة وهي سنة طبع الكتاب ، لأن مصححه يريد أن يظهر تعمقه في الأدب بهذا الاغراب والالغاز العجيب الثقيل الذي أضاع وقتي وجهدي ولم أفهم منه شيئا .

هذه نماذج مختلفة لأسلوب ذلك العصر وخصائصه ، وهو أسلوب كان يتخذ مثلا للبلاغة وتبريز الكاتب وامتيازه وتفوقه .

الأدب والعلم

ويرى البعض أن لمن يؤلف في العلم أو لمن يضع المختصرات في العلوم أو الفنون ليسهل حفظها ، يرى البعض أن لمن يكتب في هذا وذاك العذر في تـرك السهولة واليسر في الأسلوب .

كما فعل المؤلف الذي يكتب فيقول :

« أو ثوب موصوف بصفات السلم فهو بيع للمدّعاة من المدّعي لغريبه أو اجارة لها بغيرها منه لغريبه أو لغيرها بها من غريبه له » .

ففي العلم الذي قد يكون دارسوه أكثر استعدادا لتحمل المشقة وعسر التركيب ، يرى هذا البعض أن الاغراب شيء محتمل .

ولكن هذا الرأي قد فنّده عالم قديم هو « حاجي خليفة » صاحب « كشف الظنون في أسماء الكتب والفنون » الذي قال : (اعلم أن من وضع كتابا انما وضعه ليفهم بذاته من غير شرح) .

وكذلك نقول : من كتب مقالا أو كتابا فيجب أن يكتبه ليفهم بذاته من غير مشقة في الفهم .

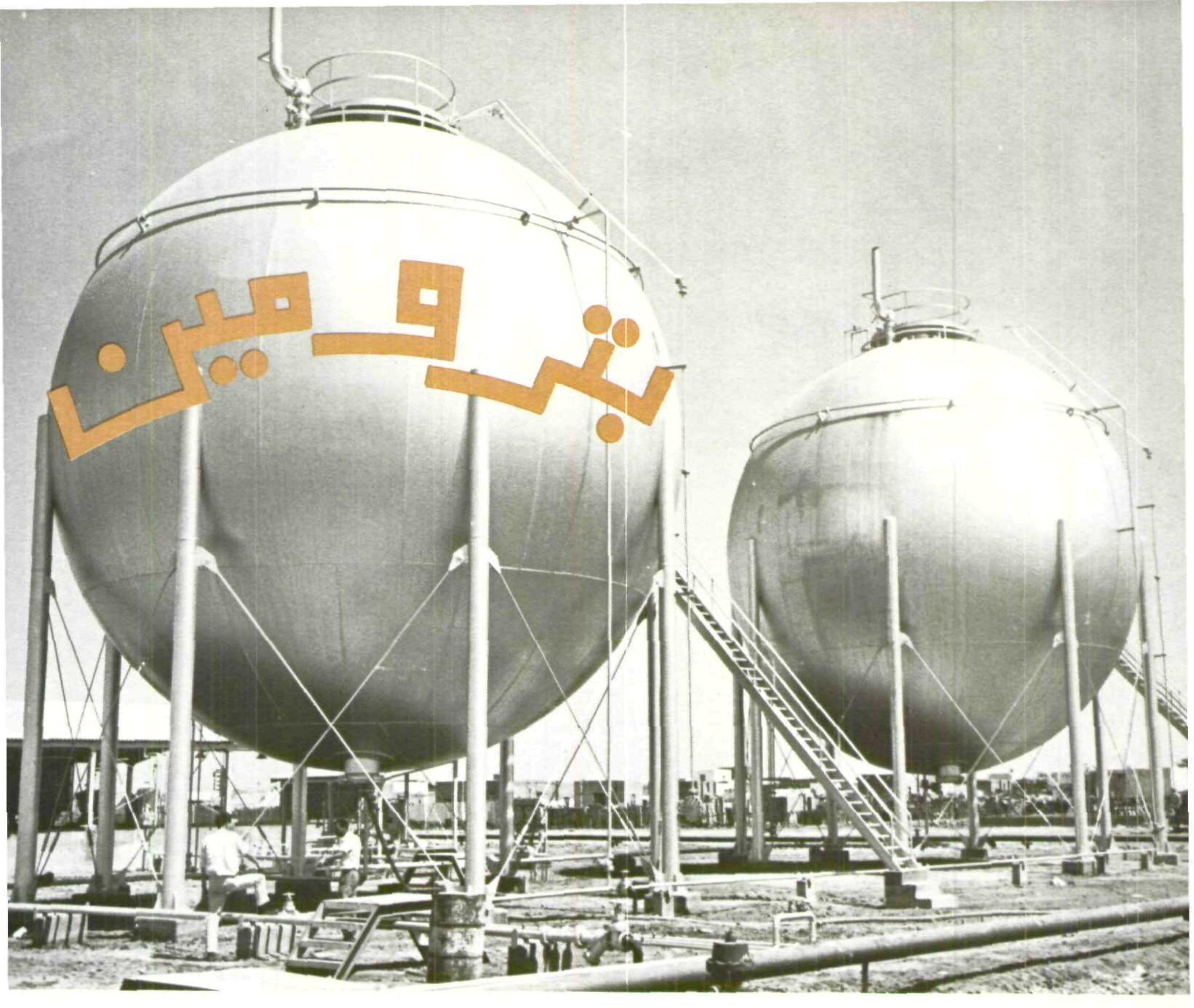
الصنعة والتصنّع

وقد كان لهذا المبدأ القائل بأن الاغراب في الكتابة دليل الاجادة والمقدرة الأدبية ، سيطرة كبيرة على كثير من الأدباء أفسدت أذواق بعضهم وخرجت بهم عن طبيعة اليسر التي كانت من سجيتهم الأدبية ، وفي ذلك قول المرحوم الشيخ مصطفى لطفي المنفلوطي : « .. عرفت فيما مضى من الأيام أديبا من أكبر أدباء هذا البلد المتضلعين باللغة وفنونها ، الحافظين للكثير الممتع من منظومها ومنثورها ، وكان لا يكتب كلمة في صحيفة ولا ينشر في الناس كتابا الا أعجم كتابته وأبهمها وتعمّل فيها تعمّلا يأخذ على القارىء عقله وفهمه فلا يدري أيّ سبيل يأخذ بين مسالكها وشعابها .

وكنت أحسبها غريزة من غرائزه الغالبة عليه ، والآخذة من نفسه مأخذ الطبيعة الثابتة ، والملكة الراسخة ، فلا سبيل له الى التخلص منها والنزوع عنها ، حتى اطلعت له عند بعض أصدقائه على كتاب صغير كان قد أرسله اليه في بعض الشئون الخاصة به ، وكتبه بتلك اللغة السهلة البسيطة التي يسمونها « اللغة العادية » فأعجبت بأسلوبه في كتابه هذا اعجابا كثيرا ورأيت أنه أبلغ ما قرأت له في حياتي من كتب ورسائل ، وعلمت أن الرجل فصيح بفطرته قادر على الابانة عن أغراضه ومراميه كأفضل ما يقدر مقتدر على ذلك ، الا أنه يتكلف الرّكة والتعقيد في كتابته ويأخذ نفسه بهما أخذا .

ولو انه أرسل نفسه على سجيتها فكتب جميع رسائله ومؤلفاته بتلك اللغة الجميلة العذبة التي كتب بها هذا لكان من أعظم الكتاب شأنا وأكثرهم نفعا وأرفعهم صوتا في عالم الكتابة والأدب ... » ■

(١) مخطوط لكتاب « منطق الطير » لزين الدين أبي عمر بن الوردي المصري .



ومشاريعها في حقل البترول

حبا الله المملكة العربية السعودية أرضا طيبة وفيرة الخيرات ، ذات ثروات طبيعية هائلة ، ما بين عضوية كالبترول والغاز الطبيعي ، ومعدنية كالذهب والحديد وغيرها .. وحكومة المملكة ، تمشيا مع سياستها الاقتصادية الرامية الى احلال التوازن بين مصادر الثروة الاقتصادية المختلفة وتطويرها جميعا على حد سواء ، تعمل اليوم على انماء مواردها الاقتصادية الأخرى ، جنبا الى جنب ، مع الثروة البترولية التي تهيمن عـلى اقتصاديات المملكة وتشكل أكثر من ٨٠ في المائة من مجموع واردات الدولة .

وعملا بهذه السياسة شرعت الدولة في تهيئة الأسباب لاستغلال الثروات الزراعية والحيوانية والمعدنية ، الى جانب ثروتي الزيت والغاز الطبيعي الأساسيتين ، وعملت على تنشيط المصانع القائمة وحمايتها ، وتشجيع القطاع الخاص على ممارسة دوره في تنمية الصناعة الوطنية واضافة لبنات جديدة الى صرحها المتين .

وبما أن وزارة البترول والثروة المعدنية ، بصفتها الحكومية ، لا تستطيع التفرغ الكامل للاشراف المباشر على مشاريع التنمية المتعلقة بالبترول والغاز الطبيعي ومختلف الثروات المعدنية ، واستثمار رؤوس الأموال الأهلية والأجنبية وتسخيرها في هذا المجال ، فقد رأت الحكومة ايجاد مؤسسة خاصة مستقلة عن النظام الروتيني ، تضطلع بهذه المهمة من جهة ، وتكمل ما قامت به وزارة البترول والثروة المعدنية من منجزات في حقول البحث والدراسة والتنقيب من جهة أخرى ، تلك هي « المؤسسة العامة للبترول والمعادن » (بترومين) .

ماهي بترومين؟

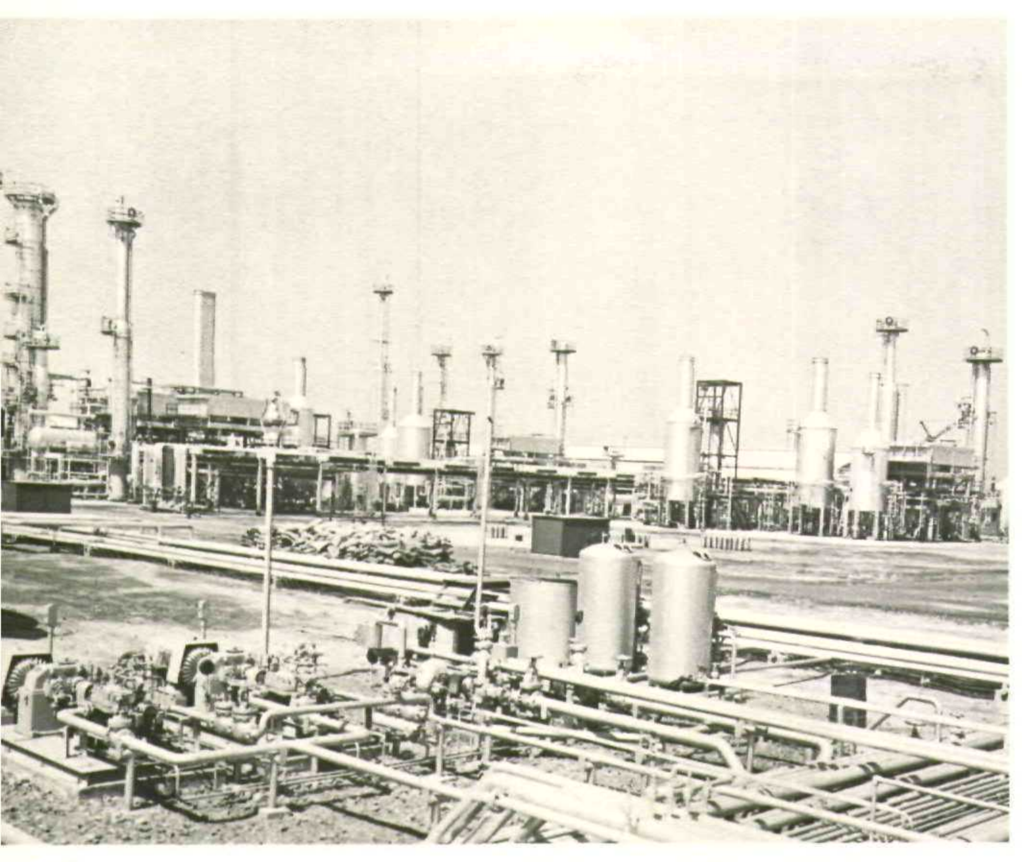
« بترومين » ، هو الاسم المختصر للمؤسسة العامة للبترول والمعادن التي أنشئت في الثالث من رجب عام ١٣٨٢ . وكان الغرض الرئيسي من انشائها هو ايجاد جو صناعي نشط في المملكة العربية السعودية ، وتطوير الصناعات المتعلقة بالبترول والتعدين ، وكسب ثقة أصحاب رؤوس الأموال الأهلية ، وجذبهم الى تجنيد أموالهم في المشاريع الحية ، وكذلك اجتذاب الشركات العالمية واشراكها في هذه المشاريع الصناعية للاستفادة من خبراتها الطويلة في مجال التصنيع ، ومن أسواقها العالمية الواسعة . كما ان من بين أهداف هذه المؤسسة اكساب القوى العاملة المحلية خبرة عملية في حقل الصناعات البترولية والتعدينية والبتروكيماوية .

ويشرف على هذه المؤسسة مجلس ادارة مكوّن من تسعة أعضاء ، يرأسه وزير البترول والثروة المعدنية نفسه ، ويشترك في عضويته نخبة ممن يتمتعون بكفاءات عالية في شتى مجالات الاختصاص . ويعتبر مجلس الادارة السلطة التشريعية والتنفيذية العليا لهذه المؤسسة .

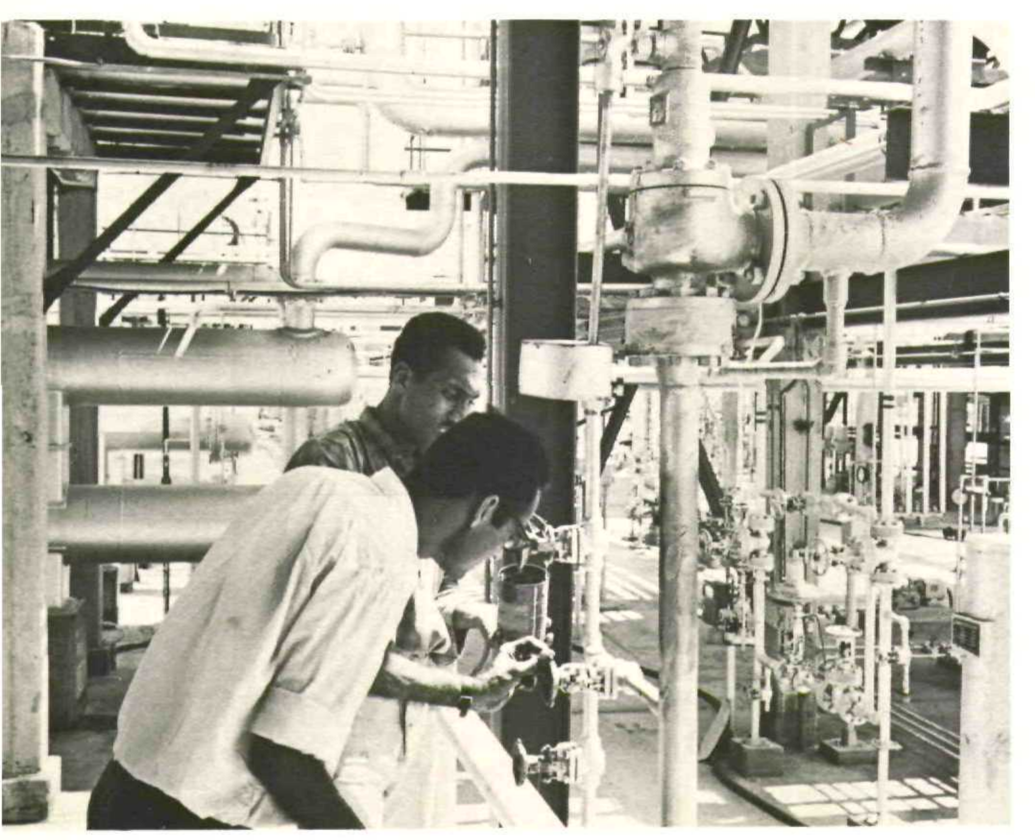
ويقع مركز (بترومين) الرئيسي في مدينة الرياض ، ويعمل فيه نحو ١٥٠ موظفا برئاسة سعادة محافظ المؤسسة الدكتور عبد الهادي حسن طاهر ونائبان له . وتنقسم مشاريع هذه المؤسسة من حيث نوعيتها الى قسمين رئيسيين هما : المشاريع المتعلقة بصناعة الزيت ، والمشاريع المتعلقة بالتعدين . وفيما يلي نتناول أهم الانجازات التي حققتها« بترومين » في مجال صناعة الزيت ، على أن نطرق مشاريع التعدين في عدد لاحق ان شاء الله .

اتفاقيات الحكومة وبترومين

منحت حكومة المملكة العربية السعودية المؤسسة العامة للبترول والمعادن رخصتين انفراديتين للتنقيب عن الزيت واستغلاله في منطقتين مختلفتين من المملكة ، الأولى في الربع الخالي ، ومساحتها ٨٦ ٤٨٩ كيلومترا مربعا ، والثانية على ساحل البحر الأحمر ، ومساحتها ٢٥ ٠٠٠ كيلومتر مربع . وقد تعهدت « بترومين » ، بموجب هاتين الاتفاقيتين ، القيام بعمليات البحث والتنقيب عن المواد الآيدروكربونية من زيت خام وغاز طبيعي واسفلت خلال ثلاث سنوات قابلة للتجديد في حال عدم العثور على الزيت بكميات



منظر عام لمصفاة « جدة » للبترول ، وتبلغ طاقتها الانتاجية ١٢٠٠٠ برميل يوميا وهي تستخدم زيتا من انتاج أرامكو .



تؤخذ عينات من المنتجات البترولية الى المختبر للتأكد من مطابقتها للمواصفات المطلوبة .

وحدة حفر كاملة تابعة لشركة الحفر العربية .



منظر عام لمحطة توزيع المنتجات البترولية في جدة .



غرفة المراقبة في مصفاة جدة للبترول .

تجارية . أما اذا عثر على الزيت بكميات تجارية ، فان الحكومة تتعهد بموجب الاتفاقية منح « بترومين » امتيازا لاستثمار المنطقة التي يكتشف فيها الزيت مدة ثلاثين عاما قابلة للتمديد عشرة أعوام أخرى . هذا وقد نصّت الاتفاقية أيضا على المبالغ التي تدفعها « بترومين » لقاء ضريبة ، وايجارات ، كما نصت أيضا على أن تقوم بانشاء مصفاة أو مصاف لتكرير الزيت بطاقة انتاجية لا تقل عن ٣٠ ألف برميل يوميا ، ونقل الزيت الخام على ناقلات تابعة لها اذا وجدت ، والا فالأفضلية تعطى للناقلات الحكومية أو الوطنية . كما تتعهد « بترومين » بتوفير مبلغ ٣٠ في المائة من دخلها الفعلي لاستثماره في عمليات بترولية متكاملة . هذا وقد ذكرت الاتفاقية أيضا المبالغ السنوية التي ينبغي أن تساند بها « بترومين » كلية البترول والمعادن في الظهران في حال العثور على الزيت . وتنفيذا لالتزاماتها الجسام التي شملتها الاتفاقية قامت (بترومين) بانجاز بعض المشاريع وابرام عدد من الاتفاقيات مع مؤسسات عالمية ، منهـا :

اتفاقيات للتنقيب

في ٢٠ رمضان ١٣٨٧ (٢١ ديسمبر ١٩٦٧) عقدت « بترومين » مع شركة « أجيب » التابعة لشركة « ايني » الايطالية اتفاقية أحالت بموجبها عليها جميع حقوقها ومنافعها والتزاماتها المحددة في اتفاقيتها الانفرادية المعقودة مع حكومة المملكة العربية السعودية للتنقيب عن الزيت في رقعة امتيازها التي تبلغ مساحتها ٨٦٤٨٩ كيلومترا من الربع الخالي .

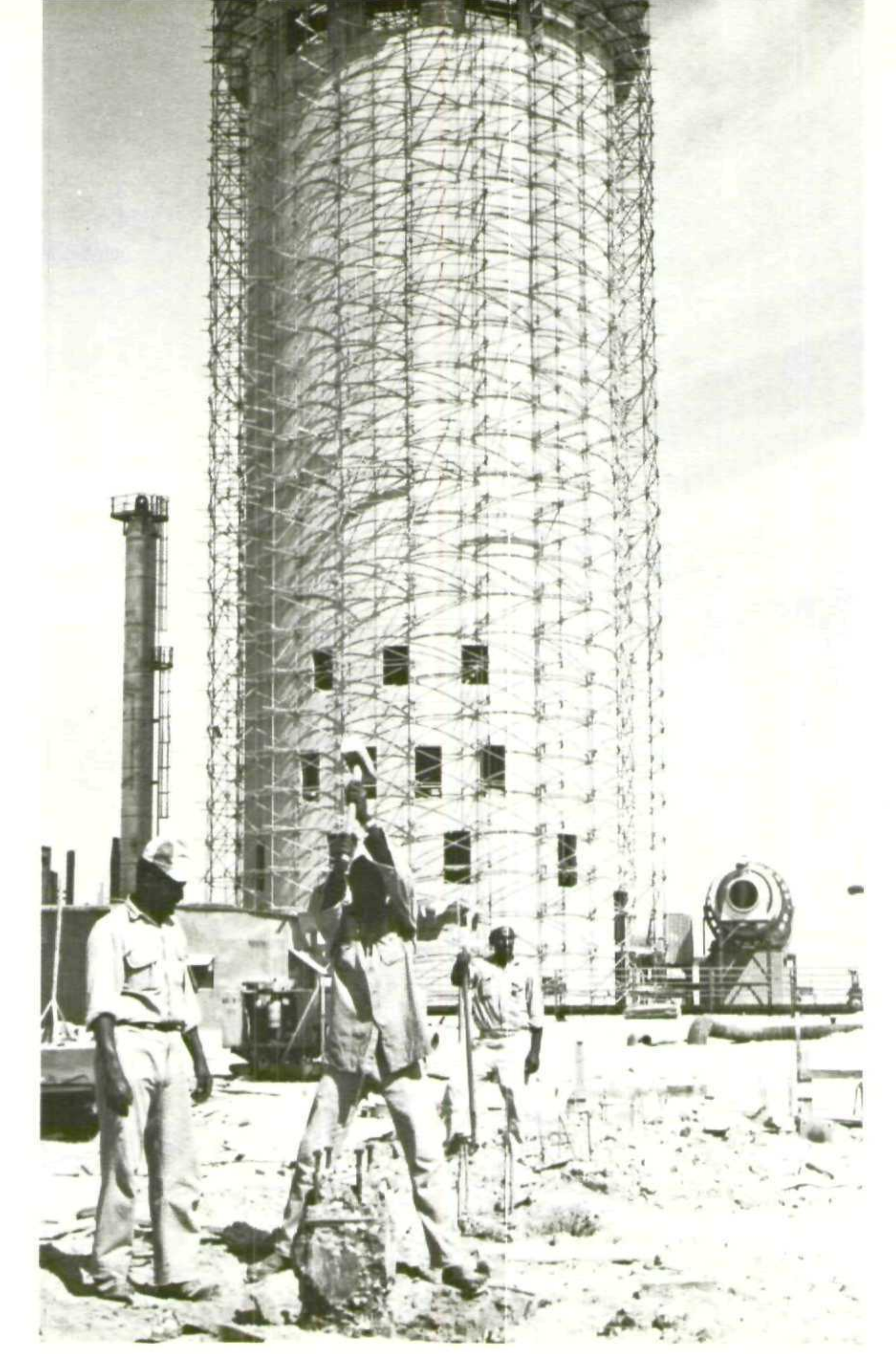
وقد نصت اتفاقية الاحالة هذه على أن تستحصل « بترومين » لشركة « أجيب » خلال فترة أقصاها تسعين يوما ، على رخصة لاستثمار الزيت لدى العثور عليه بكميات تجارية في منطقة الامتياز . كما نصت اتفاقية الاحالة على أن تحيل « بترومين » للطرف الثاني أيضا كامل ما لها من حق الاستفادة من الحصة المشاعة في حق الانتفاع الاقتصادي فيه ، الا اذا أرادت أن تحتفظ لنفسها بحصة مشاعة ، وعندئذ يمكنها الاحتفاظ بين ٣٠ و ٤٠ في المائة من الحق تبعا لمعدل الانتاج شرط أن تدفع «بترومين» النسبة نفسها من المصاريف التي تكبدتها « أجيب » خلال عمليات الاستكشاف والتنقيب . ومهما تكن الحال تبقى « بترومين » وحدها صاحبة الحق الشرعي في ملكية الرخصة .

ومتى بلغ معدل الانتاج ٢٠٠ ألف برميل يوميا يتوجب على الطرفين وضع برنامج مشترك لاقامة مشاريع بترولية متكاملة تضمن اقامة مصفاة للبترول داخل المملكة العربية السعودية ذات طاقة تصنيعية يبلغ حدها الأدنى ٣٠٠٠٠ برميل يوميا ، وغير ذلك من المرافق الأخرى . كما نصت الاتفاقية على أن تعطى أولوية التوظيف في الشركة الجديدة التي عرفت باسم « شركة أجيب العربية السعودية » للرعايا السعوديين ثم لمواطني الدول العربية والدول الصديقة ، كما تعطى أولوية تنفيذ الأعمال والمنشآت الخاصة بالشركة للمقاولين العرب السعوديين .

وقد قامت شركة « أجيب » بعقد اتفاقية بينها وبين مؤسسة « فيلبس » الأمريكية للزيت بعد موافقة الحكومة السعودية ، أحالت بموجبها ٥٠ في المائة من حصتها في اتفاقياتها مع « بترومين » على شركة « فيلبس العربية السعودية » المنبثقة عنها ، بكل ما لها من امتيازات والتزامات .

وقد ألحق باتفاقية « بترومين — أجيب » اتفاقية أخرى بين كل من « بترومين » و « انيش » التابعة لمجموعة « ايني » أيضا ، تنص على انشاء صناعة بتروكيماوية برأسمال مقداره ٩٠ مليون ريال سعودي يساهم كلا الطرفين في رأس المال بالتساوي .

أما بالنسبة للتنقيب عن الزيت على ساحل البحر الأحمر ، فقد منحت حكومة المملكة العربية السعودية شركة « أوكسلير دي لا ريجي أوتونوم ديه بترول » (أوكسيراب) الفرنسية ، رخصة منفردة لاستكشاف الزيت والتنقيب عنه في مساحة تبلغ نحو ٢٦ ألف كيلومتر موزعة على ثلاث مناطق ،



برج « اليوريا » ويبلغ ارتفاعه نحو ٥٥ متراً . ويتم فيه تحويل اليوريا السائلة الى حبيبات تتجمع في أسفل البرج حيث يجري تبريدها ونقلها بالتالي الى مستودع التخزين تمهيدا لشحنها .

اثنتان منها في شمالي البحر الأحمر ، والثالثة في جنوبيه ، وذلك بموجب اتفاقية عقدت في ٣ ذي الحجة ١٣٨٤هـ (٤ ابريل ١٩٦٥) . كما منحت المجموعة المكونة من « سنكلير أريبيان أويل كومباني » و « ناتوماس انترناشيونال كوربوريشن » و « حكومة باكستان » رخصة للتنقيب في رقعة أخرى على ساحل البحر الأحمر لم تحدد بعد ، بموجب اتفاقية بين الطرفين وقعت في ٢٢ رمضان ١٣٨٧ (٢٣ ديسمبر ١٩٦٧) .

عمليات التوزيع والتسويق

لقد أحرزت « بترومين » نجاحا ملحوظا في عمليات توزيع المنتجات البترولية وتسويقها محليا . ومن بين الخطوات التي حققتها في هذا السبيل ، شراء محطات التوزيع التابعة لأرامكو في كل من جدة والرياض ، والخرج ، والهفوف والظهران ، وطريف ، بالاضافة الى مرافق تزويد الطائرات بالوقود . وتتولى أمر توزيع المنتجات ادارتان تابعتان لبترومين ، احداهما في جدة وتعرف باسم « ادارة توزيع المنتجات البترولية » ومهمتها توزيع المنتجات في المنطقة الغربية وفي مناطق الحجاز النائية ، والأخرى في الظهران وتعرف « باسم ادارة بترومين للتسويق » ، وهي تقوم بعمليات التوزيع في المناطق الشرقية والوسطى والشمالية . وتتبع للادارة الأولى محطة التوزيع بجدة التي تضم حاليا ١٩ خزانا للمنتجات تستوعب ما يزيد على مليون برميل ، ويجري العمل الآن على انشاء خزانين اضافيين سعة كل منهما ١٠٠٠٠٠ برميل وذلك تخفيفا للضغط المتزايد

على المحطة . وقد تقرر انشاء محطة أخرى للتوزيع في مكة المكرمة يتوقع انجازها في المستقبل القريب ، كما يجري دراسة انشاء محطات أخرى للتوزيع في كل من تبوك وجيزان ، وخميس مشيط ،

أما الادارة الثانية فيتبع لها محطات لتوزيع المنتجات وساحة خزانات ضخمة ، ومرافق لتعبئة الطائرات بالوقود . ففي المنطقة الوسطى تتبع لهذه الادارة محطتا توزيع احداهما في الرياض ، والأخرى في الخرج بالاضافة الى مرفق لتعبئة الطائرات بالوقود في مطار الرياض . ويتم تزويدهما بالمنتجات من محطة التوزيع في الظهران عن طريق سكة حديد حكومة المملكة العربية السعودية . وفي المنطقة الشمالية محطة واحدة للتوزيع . أما في المنطقة الشرقية ، فتوجد محطتان لتوزيع المنتجات واحدة في الظهران والأخرى في الهفوف ، ومرفق لتعبئة الطائرات بالوقود في مطار الظهران ، وساحة للخزانات . ويعمل في عمليات التوزيع والتسويق نحو ٣٦٧ موظفا جلهم من العرب السعوديين .

تكرير الزيت

لما كان تكرير الزيت الخام يشكل دعامة رئيسية في صرح صناعة بترولية متكاملة ، فقد كان من الطبيعي أن تلجأ (بترومين) ، وهي صاحبة امتياز لتسويق المنتجات البترولية وتوزيعها في شتى أرجاء المملكة ، الى فكرة انشاء مصاف لتكرير الزيت خاصة بها . وقد اختارت « بترومين » مدينة جدة مقرا لأول مصفاة لها ، وذلك لوقوعها في مركز يتوسط معظم مدن المنطقة الغربية وقراها ، ولوقوعها على شاطيء البحر مما يسهل أمر وصول ناقلات الزيت الخام من رأس تنورة اليها . وقد بدأ الانتاج في هذه المصفاة وأخذ انتاجها يسد معظم احتياجات المنطقة الغربية من المنتجات البترولية . وتتألف المصفاة من ست وحدات رئيسية هي وحدة تقطير الزيت الخام ، ووحدة الميروكس ، ووحدة ازالة الكبريت من البنزين ، ووحدة ازالة الكبريت من الديزل والكيروسين ، ووحدة التقطير تحت الضغط الفراغي ، ووحدة الاسفلت . وتبلغ طاقتها الانتاجية الاجمالية ١٢٠٠٠ برميل يوميا . أما أنواع المنتجات البترولية التي تقوم المصفاة بانتاجها فهي : غاز البترول السائل ، والبنزين الممتاز ، والبنزين العادي ، ووقود الطائرات النفاثة ، والكيروسين ، والديزل ، ووقود المحركات ،



منظر عام لوحدة تحويل الغاز الى آيدروجين (الى اليمين) ووحدتي فصل غاز ثاني أوكسيد الكربون والكبريت (الى اليسار) التابعة لمعمل (سافكو) الذي ما زال قيد الانشاء .



سيارات صهريج تملأ خزاناتها من محطة توزيع المنتجات البترولية في جدة لتحملها الى محطات لخدمات السيارات في مختلف أنحاء المنطقة الغربية .

ووقود السفن ، والاسفلت ، وزيت الوقود .
ويعمل في هذه المصفاة بين فنيين واداريين ٢٦٠ موظفا ، وقد تعاقدت « بترومين » مع شركة « يونيفرسال أويل برودكتس » على تزويد المصفاة بحاجتها من المهندسين الاستشاريين والفنيين .
ولما كانت شركة المصافي العربية السعودية « ساركو » قد منحت - قبل انشاء « بترومين » - امتياز انشاء مصفاة للزيت في « جدة » ، فقد صدر مرسوم ملكي بتأليف شركة من كل من « بترومين » و « ساركو » لملكية المصفاة ، تكون حصة « بترومين » فيها ٧٥٪ من مجموع أسهم الشركة .
وقد قرر مجلس ادارة « بترومين » انشاء مصفاة في مدينة الرياض تبلغ طاقتها ١٥٠٠٠ برميل في اليوم الواحد . وقد قدرت تكاليف هذه المصفاة بحوالي ١٠٠ مليون ريال سعودي يساهم فيها كل من « بترومين » والقطاع الخاص . ويجري حاليا اجراء الدراسات الفنية الأولية تمهيدا لاختيار الموقع المناسب الذي ستقام عليه المصفاة . وسيتم تزويد المصفاة بالزيت الخام من حقل خريص الذي لا يبعد كثيرا عن مدينة الرياض . وينتظر أن تسد هذه المصفاة حاجة المنطقة الوسطى بأكملها من مختلف المنتجات البترولية .

شركة بترومين لزيوت التشحيم

لقد تمّ الاتفاق بين « بترمين » وشركة « موبيل انفستمنتس » على انشاء شركة لمعالجة وتكرير وصنع زيوت التشحيم وما يتصل بها من منتجات . وكذلك القيام بجميع عمليات تسويق هذه الزيوت داخل المملكة وخارجها . وقد حدد رأس مال الشركة بثلاثة ملايين ريال سعودي تملك « بترومين » ٧١ في المائة من مجموع أسهمها وتملك شركة «موبيل انفستمنتس» الأسهم الباقية . وستبدأ الشركة أعمالها بانشاء معمل لها في جدة ، تبلغ طاقته البدائية ٧٥ ألف برميل سنويا . وهي الآن تعد العدة لذلك .

شركة الناقلات العربية السعودية

لما كانت مصفاة « جدة » في حاجة مستمرة لناقلات تزودها بالزيت الخام ، فقد فكرت « بترومين » في انشاء شركة ناقلات تابعة لها تتولى أمر نقل الزيت الخام من فرضة رأس تنورة في المنطقة الشرقية الى المصفاة . ونقل المنتجات

برج تقطير الزيت الخام ، حيث يجري تجزئة الزيت الخام الى منتجات أولية .
تصوير : أحمد منتاخ وعلي عبد الله خليفه

تقرير بترومين

أصدرت المؤسسة العامة للبترول والمعادن (بترومين) تقريرا عاما عن سير أعمالها لعام ١٣٨٨هـ ، تضمن معلومات قيمة عن نشاط هذه المؤسسة ومشاريعها الحية المتعددة في كل من قطاع الزيت ، وقطاع البتروكيماويات ، وقطاع المعادن والصناعات التعدينية . وقد قدم لهذا التقرير معالي الشيخ أحمد زكي يماني ، وزير البترول والثروة المعدنية ورئيس مجلس ادارة « بترومين » ، وكتب خاتمته سعادة الدكتور عبد الهادي حسن طاهر ، محافظ المؤسسة .

من مصفاة جدة الى الشاطيء الغربي من المملكة . كما تتولى نقل المعادن والمنتجات المعدنية الى الموانيء المحلية . ومن المخططات الموضوعة لهذه الشركة توسيع عمليات نقل المواد البترولية والمعدنية كي تشمل النطاق العالمي .

وقد تعاقدت « بترومين » مع شركة « يونيتد تانكرز » الأمريكية للاشراف على الادارة الفنية لشركة الناقلات العربية السعودية دون المساهمة في رأس المال بينما سيكون رأس المال بأكمله سعوديا صرفا تشترك « بترومين » والقطاع الخاص في ملكية أسهمه .

شركة الحفر العربية

قامت « بترومين » عام ١٣٨٣هـ بعقد اتفاق بينها وبين شركتي « فوريكس » و « لونجدسيان فورنكو » الفرنسيتين على انشاء شركة يبلغ رأسمالها عشرة ملايين ريال سعودي تملك « بترومين » ٥١ في المائة من أسهمها ، وتملك الشركتان الأخريان ٤٩ في المائة . وقد عرفت هذه الشركة باسم « شركة الحفر العربية » وحددت مدتها بـ ٥١ عاما قابلة للتجديد . ومهمة هذه الشركة القيام بأعمال التنقيب عن الزيت والمعادن والمياه الجوفية في المملكة العربية السعودية وفي الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية . الى جانب الأردن والسودان والحبشة والصومال .

وقد قامت شركة الحفر منذ تأسيسها حتى الآن بأعمال حفر مختلفة لعدد من شركات الزيت العاملة في المملكة . ففي عام ١٩٦٥ ، عقدت اتفاقية مع شركة الزيت العربية (اليابانية) التي تعمل في المنطقة المحايدة ، مدتها ثلاث سنوات ، قامت بموجبها بأعمال الحفر المطلوبة للتنقيب عن الزيت في المنطقة المغمورة بالمياه ، لقاء مبلغ ٣٤ مليون ريال سعودي . وفي عام ١٩٦٦ ، أبرمت اتفاقية أخرى مع الشركة نفسها مدتها ثلاث سنوات للقيام بأعمال حفر أخرى لقاء مبلغ ٤٠ مليون ريال سعودي . وقد قامت شركة الحفر ، بموجب هاتين الاتفاقيتين ، بشراء جهازي حفر عائمين دعتهما « عرب درل رقم — ١ » و « عرب درل رقم — ٢ » بلغت تكاليفهما ٣٧ مليون ريال سعودي ، كما قامت أيضا بشراء زورق للمؤن تخطت تكاليفه مليوني ريال .

وفي عام ١٩٦٦ نفسه عقدت « شركة الحفر العربية » مع « أوكسيراب » اتفاقية طويلة الأمد للقيام بأعمال الحفر التنقيبية في منطقة امتيازها على ساحل البحر الأحمر قرب جيزان . وقد اشترت شركة الحفر لهذه الغاية جهاز حفر بلغت تكاليفه أربعة ملايين ريال سعودي استخدم فعلا في حفر أول بئر استكشافية قرب « جيزان » . وفي هذا العام نقل هذا الجهاز ليعمل لحساب شركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) اثر حصول « شركة الحفر العربية » على عقد مع أرامكو مدته سنتان .

هذا وقد كان « لشركة الحفر العربية » نصيب في أعمال التنقيب عن المعادن التي ترعاها مديرية الثروة المعدنية في وزارة البترول والثروة المعدنية ، اذ حظيت من الوزارة بعقد تقوم بموجبه باجراء جميع عمليات الحفر اللازمة للتنقيب عن المعادن في شتى أرجاء المملكة ، ولديها لهذه المهمة ستة أجهزة حفر لجمع العينات الجيولوجية تعمل في مناطق مختلفة . ويعمل في شركة الحفر (٤٥٠) موظفا بين سعودي وفرنسي معظمهم من العرب السعوديين .

المشاريع البتروكيماوية

منذ مدة طويلة ، والمسؤولون في حكومة المملكة العربية السعودية تشغلهم فكرة الاستفادة من الصناعات البتروكيماوية الحديثة.

وقد قامت (بترومين) بدراسات عديدة لهذا الموضوع كانت أولاها عام ١٩٤٧ ، ثم تلتها دراسات أخرى عام ١٩٥٨ و ١٩٦١م . أجرتها مجموعة من الشركات الهولندية . ثم قامت احدى الشركات الاستشارية العالمية باجراء دراسة اقتصادية فنية للموضوع أسفرت عن امكان انتاج سماد « اليوريا » بكميات ضخمة تزيد على حاجة المملكة من السماد . وفي الوقت نفسه كانت هنالك مجموعة أخرى من الشركات اليابانية تدرس امكان الاستفادة من الغاز الطبيعي بصورة عامة . وقد تبنت « بترومين » هذه الدراسات جميعها ودراسات أخرى غيرها لانتاج عدد من المنتجات المفيدة كالبلاستيك الخام والكبريت الخام ، وغيرهما ، وكانت المشكلة التي تواجه انشاء مصنع الأسمدة الكيماوية هي تصريف المنتوج الفائض ، وقد عالجت « بترومين » هذه المشكلة وتغلبت عليها بأن اتفقت مع شركة « انترناشيونال أور أند فيرتيلايزرز » التابعة لشركة « أوكسيدنتال بتروليوم » الأمريكية ، على بيعها اياها جميع منتوج المصنع — عدا ما يستهلك محليا — لمدة سبعة عشر عاما لتتولى تسويقه عالميا وفقا للأسعار العالمية السائدة . وعلى أثر ذلك قامت « بترومين » بانشاء شركة تحمل اسم شركة الأسمدة العربية السعودية (سافكو) لانتاج ١١٠٠ طن يوميا من سماد « اليوريا » بالاضافة الى ٣٥ طنا يوميا من الكبريت الخام ، ويبلغ رأس مال الشركة المصرح به مائة مليون ريال سعودي تملك بترومين ٥١ في المائة من أسهمها ويملك القطاع العام بقية الأسهم . ومدة امتياز الشركة ثلاثون عاما . وقد تعاقدت « سافكو » مع « شركة كميكال كونستركشن » (كميكو) لاشادة المصنع متعهدة اتمامه في غضون ثلاث سنوات . ويتوقع أن يبدأ بالانتاج في النصف الأول من عام ١٩٦٩ .

وليست مشاريع « بترومين » في حقل الصناعة البتروكيماوية مقصورة على مصنع الأسمدة الكيماوية فحسب ، فقد أبرمت اتفاقية أخرى مع كل من شركة « جيفرسون ليك سلفر » وشركة « انتر أور أوف سعودي أريبيا » التابعتين لشركة « أوكسيدنتال بتروليوم » الأمريكية على اقامة مصنع في بقيق لانتاج الكبريت الخام من الغاز الطبيعي بمعدل سيبلغ في متوسطه ٥٠٠ طن يوميا ، ويتوقع أن يبدأ المصنع انتاجه في نهاية عام ١٣٩٠هـ . وتجري الاستعدادات حاليا لتأسيس شركة تتولى تنفيذ هذا المشروع تحمل اسم « شركة بترومين للكبريت » . وقد حدد رأس مال هذه الشركة بـ ٤٥ مليون ريال سعودي ، وهو نصف الاستثمارات الاجمالية اللازمة للمشروع ، أما النصف الباقي من الاستثمارات فسيوفر بقروض مؤخرة يجري تسديدها من ايراد المشروع . وستساهم شركة « جيفرسون ليك سلفر » المتفرعة عن شركة « اكسيدنتال » بثلث رأس مال المشروع ، بينما ستساهم « بترومين » والقطاع العام بالثلثين الباقيين . وقد تعهدت شركة « انتر أور أوف سعودي أريبيا » بتسويق منتوج المصنع من الكبريت الخام في الأسواق العالمية وفقا لنصوص معينة .

وتفكر « بترومين » أيضا في اقامة صناعات بتروكيماوية أخرى في المملكة العربية السعودية معتمدة على الغاز الطبيعي كمادة أولية لها . وأقرب هذه المشاريع الى التحقيق ما تم الاتفاق عليه مع شركة « أنيش » الايطالية ، للقيام بمشروع بتروكيماوي نافع . هذا بالاضافة الى دراسة أخرى قامت « بترومين » باجرائها والتي ترمي الى انشاء صناعة لدائن البلاستيك (بولي فينيل كلورايد) . ■

أسماء بنت أبي بكر الصدّيق

بقلم الاستاذ علي حافظ

انبثقت بالهجرة النبوية ، مرحلة هامة في تاريخ الاسلام ، فقد اشتد فيها عوده ، وترعرع عليها نبته ، واستوى بها زرعه على سوقه ، وكانت أرض الهجرة –المدينة – خصبة ، والماء الذي سقيت به عذبا زلالا ، وكان الساقي خبيرا مؤمنا صادقا مخلصا ، لم يسق ليجر نفعا لنفسه ، ولم يصدر عن هواه ، بل كان رسولا أمينا عبقريا عادلا ، وكان حراس ذلك الزرع أنصار أتقياء أوفياء ، فعظم شجر ذلك الغرس ، وآتى أكله ناضجا وافرا شهيا ، ومنذ السنة الأولى للهجرة والناس ينعمون في ظل ذلك الشجر الوارف الظلال .

أجل ، لقد انبثقت مرحلة هامة عن الهجرة النبوية في تاريخ الاسلام ، بل في تاريخ العالم كله .. قلبت أوضاعه رأسا على عقب . وفتح العالم أعينه – بعدها – على مبادىء لم يعرفها : كسرت الأصنام ، ودمرت الطواغيت ، ورفعت لواء توحيد الله ، وقربت بين الشعوب ، وأرتهم العدل نهارا ، والظلم ليلا ، والجهل دمارا ، وساوت بين القريب والبعيد ، والأبيض والأسود والأحمر والأصفر ، لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى والعمل الصالح .

والمتأمل في تاريخ الهجرة يجد أن أسماء بنت أبي بكر الصديق تتألق في ذلك التاريخ تألق الأقمار في كبد السماء . وتلمع بين سطوره لمعانا يستوقف النظر .

لقد قامت أسماء بدور هام في تاريخ هجرة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، يصح أن يكون ركيزة من الركائز التي قام عليها بنيان الهجرة ، وان يعد من الأعمال الخالدة التي قامت بها امرأة في أضخم مشروع لخدمة الاسلام والعدل والسلام ، ومن الأعمال التي تشرف المرأة المسلمة وتعتز بها فتياتنا اليوم ، وما بعد اليوم ، وكل يوم .

لقد وجدت في الفتاة أسماء قوة ، وشجاعة ، وفصاحة ، وايمانا قويا بالله ، وحصافة ، ونضوجا ، وبعد نظر وتضحية في سبيل الله ، وعملا صالحا مثمرا .. ووجدت فيها الزوجة المثالية ، والأم الولود المربية ، والسيدة التي لا تلين قناتها الا للحق والعدل . فقد بلغت القرن عمرا ، وهي كالجبل الأشم لم يؤثر على عزة نفسها وشجاعتها كر الغداة ومر العشي .. لم تضعف ، ولم تستسلم ،

ولم ترم سلاح الجهاد في سبيل الله من يدها ، وقد حملته منذ أول سنة من سني الهجرة حتى سلمت روحها لبارئها .

دور أسماء في دعم الهجرة

وأعتقد أن بيت أبي بكر الصديق كان من البيوت المثالية في بيوت قريش ، التي كانت تنشيء الأبطال والبطلات ، والزاكين والزاكيات ، والمؤمنين الصالحين الصابرين ، والمؤمنات الصالحات الصابرات . فلم تكن وقتئذ مدارس للتربية الا البيوت .. وتأثير البيت على التربية لا يزال أساسيا الى اليوم ، وسيظل البيت المصنع الناجح للرجال .

وأنجب بيت أبي بكر الصديق ممن أنجب ، أسماء البطلة الواعية . وعندما ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم لدار أبي بكر بمكة للبحث مع صديقه في أمر الهجرة التي أذن الله له بها كانت في المجلس أسماء وعائشة ، فقال رسول الله لأبي بكر : « أخرج عني من عندك . » فقال له أبو بكر : « انما هما ابنتاي ، وما ذاك فداك أبي وأمي ؟ » اشارة من أبي بكر الى وثوقه من ابنتيه وتربيتهما . فتفاوضا في أمر الهجرة ، وخططا لها ، وقررا الاختفاء من قريش في غار جبل ثور — وكانت قريش تلح في طلب رسول الله لقتله بسيوف شبانها وكانت أسماء الرابعة في هذا الاجتماع .

وبعد هذه الخطوة من تاريخ الهجرة تجلت عبقرية أسماء ، وبدا دورها الهام في دعمها ، فكتمت سر الهجرة هي وأختها عائشة — وكان عمر عائشة حوالي الثامنة — وأخوها عبد الله .. كتموا سر الهجرة ، فالبوح به له خطره العظيم على رسول الله ، وعلى الاسلام كله . و مع أن زعماء قريش خصصوا مائة بعير لمن يدلهم على محمد بن عبد الله الا أن أسماء اليقظة الواعية كتمت السر أيما كتمان . فقد جاء أبو جهل ، ومعه نفر من قريش ، ودق باب أبي بكر يبحث عنه وعن رسول الله بعد اختفائهما في الغار بجبل ثور ، فخرجت لهم أسماء فقالوا لها : أين أبوك يا ابنة أبي بكر ؟ فقالت لهم : لا أدري والله أين أبي ؟ ويبدو أن الحماس والعنف كانا باديين على حديثها ، وكأنما لسان حالها يقول لهم : لماذا تسألون عن أبي ؟ فرفع أبو جهل يده — وكان فاحشا خبيثا — فلطمها على وجهها لطمة أسقطت قرطها من أذنها . فتحملت أسماء اللطمة والاهانة ، وسكتت ، وصبرت ولم تفكر في اتخاذ أي اجراء ضد عدوان أبي جهل السافر ، وفوضت أمرها لله .

ودق باب أبي بكر — بعد الاختفاء — والده أبو قحافة ، وفتحت له أسماء فدخل ، وانتقد تصرف أبي بكر . ولنترك أسماء تتحدث عما جرى بينها وبين جدها أبي قحافة :

قالت : لما خرج رسول الله ، وخرج أبو بكر معه ، احتمل أبو بكر ماله كله وكان خمسة آلاف درهم . فدخل علينا جدي أبو قحافة وقال : والله اني لأراه قد فجعكم في ماله ونفسه . قالت : قلت : كلا يا أبت انه ترك لنا خيرا كثيرا ! قالت وأخذت أحجارا فوضعتها في كوة في البيت كان أبو بكر يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوبا ، ثم أخذت بيده — وكان ضريرا — وقلت له : يا أبت ضع يدك على هذا المال ، فوضع يده عليه . فقال لا بأس اذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم . قالت أسماء : ولا والله ما ترك لنا شيئا ، ولكن أردت أن أسكن الشيخ بذلك . » وقد كان في امكان أسماء أن تقول لجدها غير ما قالت ، ولكن تربية أبي بكر وبيته وذكاء أسماء جعلاها تدرك — من كلام أبي قحافة ولهجته — انه ينتقد تصرف أبيها ، وان هذا النقد قد يؤدي الى البوح بسر الهجرة . فأنقذت الموقف بتصرفها هذا الحكيم السليم .

ولأول مرة في تاريخ الفتيات المسلمات تستعمل أسماء مبدأ « الحرب خدعة » ، فهي تعرف أي خطر يهدد رسول الله ورسالته لو قدر لسر الهجرة أن يفشى ، فتحملت اللطم والكذب ، في سبيل كتمان سر رسول الله وهجرته الموفقة .

وكانت الفتاة أسماء تتسلل تحت ستار الظلام كل يوم وتذهب لرسول الله وأبي بكر في الغار بما يصلحهما من طعام .

ذات النطاقين

ولما يئست قريش من العثور على رسول الله وصاحبه ابي بكر ، ومرت ثلاثة أيام على البحث عنهما ، دون أن يصلوا الى نتيجة هدأت تحرياتهم . وخرج رسول الله وأبو بكر من الغار ، ليمتطيا راحلتيهما ، ويسافرا مهاجرين للمدينة المنورة . وقد أعدت لهما أسماء سفرة وجاءت بها لهما ، فلما أرادت ربط السفرة في الراحلة لم تجد عصاما(١) لربطها ، فحلت نطاقها وشقته شقين ، وجعلت أحدهما عصاما شدت به السفرة في الراحلة وانتطقت بالشق الثاني ، فسماها رسول الله « ذات النطاقين . »

وهكذا دخلت أسماء أبواب التاريخ الاسلامي بذكائها وشجاعتها . ولما تبلغ العقد الثالث من عمرها بعد .

أسماء الزوجة

لقد تزوجت أسماء من الزبير بن العوام بمكة قبل الهجرة ، ولما هاجر رسول الله وأبو بكر ، واستقرا في المدينة هاجرت أسماء مع زوجها الزبير وكانت حاملا ، ونزلت بقباء فولدت عبد الله ابن الزبير وكان أول مولود ولد في الاسلام بالمدينة ، وقد دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم وبارك عليه . ثم ولدت للزبير عروة ، والمنذر ، وعاصم ، والمهاجر ، وخديجة الكبرى ، وأم الحسن ، وعائشة

وقالت أسماء : « تزوجني الزبير وما له في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه ، وكنت أعلف فرسه وأسقيه وأسوسه ، وأكفيه مؤنته ، وأدق النوى الناضجة ، وأعجن العجين . ولم أكن أحسن أن أخبز . » فكانت تخبز عند جارات لها من الانصار ، وكن نسوة صدق .

قالت : « وكنت أنقل النوى من أرض الزبير ، التي اقطعها له رسول الله على رأسي ، وهي على ثلثي فرسخ . فجئت يوما ، والنوى على رأسي ، فلقيت رسول الله ومعه نفر من أصحابه ، فدعاني ثم قال : اخ ، اخ ليحملني خلفه ، فاستحييت أن أسير مع الرجال ، وذكرت الزبير وغيرته ، وكان أغير الناس ، فعرف رسول الله أني قد استحييت فمضى ، فجئت الزبير ، فقلت لقيني رسول الله ، وعلى رأسي النوى ومعه نفر من أصحابه ، فأناخ لأركب فاستحييت ، وعرفت غيرتك . فقال : لحملك النوى أشد علي من ركوبك معه ! وبقيت على تلك الحال حتى أرسل لي أبو بكر بخادم فكفتني سياسة الفرس ، فكأنما أعتقني » .

(١) العصام من القربة : حبل يشد فتحمل به ، ومن الوعاء : عروة يعلق بها .

وكان الزبير مع غيرته شديدا على أسماء، فأتت أباها فشكت اليه ذلك ، فقال لها : يا بنية ، اصبري، فان المرأة اذا كان لها زوج صالح، ومات عنها ، فلم تتزوج بعده جمع بينهما في الجنة .

سخاء أسماء

وذهبت أسماء لرسول الله فقالت : « يا نبي الله ليس في بيتي شيء غير ما أدخل علي الزبير ، فهل علي جناح أن أرضح(٢) » فقال : « ارضحي ما استطعت ، ولا توكي فيوكي الله عليك . »

وكانت أسماء تقول لبناتها وأهلها : « انفقوا ، وأنفقن وتصدقن ، ولا تنتظرن الفضل فانكن ان انتظرتن الفضل لم تفضلن شيئا ، وان تصدقتن فلن تجدن فقده . » وكانت أسماء اذا مرضت تعتق كل ما هو مملوك لها . ولما فرض عمر ابن الخطاب الاعطيات فرض لها ألف درهم .

أسماء مع أمها

وقدمت الى المدينة قتيلة بنت عبد العزي ، أحد بني مالك بن حسل ، على بنتها أسماء بنت أبي بكر — وكان أبو بكر قد طلقها في الجاهلية — بهدايا زبيب وسمن وقرظ(٣) ، فأبت أسماء أن تقبل هديتها ، وتدخلها بيتها خشية أن يكون في أخذها هدية أمها — وهي لم تسلم بعد — ما يمس دينها وما لا يرضي رسول الله.

وأرسلت لعائشة تقول : سلي رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال : لتدخلها ولتقبل هديتها. وأنزل الله تعالى : « **لا ينهاكم الله عن الذين لا يقاتلوكم في الدين .** » الى قوله : « **أولئك هم الظالمون .** »

أسماء المحدثة

وروت أسماء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث عديدة هي في الصحيحين والسنن . وروى عنها ابناها عبد الله وعروة ، وأحفادها عباد بن عبد الله ، وعبد الله بن عروة ، وفاطمة بنت المنذر ابن الزبير ، وعباد بن حمزة بن عبد الله ابن الزبير ، ومولاها عبد الله بن كيسان وعبد الله بن عباس ، وصفية بنت شيبة ، وابن أبي فليكة .

شجاعة أسماء

كانت أسماء مع الزبير في معركة اليرموك . شهد الليثي أبو واقد اليرموك ، وكانت أسماء بنت أبي بكر مع الزبير ، قال : وسمعتها تقول للزبير : « يا أبا عبد الله ، والله ان الرجل من العدو ، ليمر يسعى ، فيصيب قدمه عروة أطناب خبائي ، فيسقط على وجهه ميتا مما أصابه السلاح » .

تصف أسماء للزبير زوجها ما وصل اليه الأعداء في المعركة من الخوف ، والرعب ، والخور . ومن شخوصها مع الزبير مع الجيش الاسلامي نستطيع أن نعرف مدى شجاعتها ورباطة جأشها .

واستعر مرة اللصوص في المدينة ، فاتخذت أسماء خنجرا تضعه تحت رأسها للفتك بمن تسول له نفسه التعرض لحماها .

ملابس أسماء

وقدم المنذر ابنها من العراق ، وأرسل لها هدية كسوة من ثياب مروية وقوهية رقاق عتاق ، وكانت في آخر عمرها وقد كف بصرها ، فلمستها بيدها ثم قالت : « ردوا اليه كسوته . » فشق ذلك عليه ، وقال : يا أمه انها لا تشف . قالت : انها ان لم تشف فانها تصف . فاشترى لها ثيابا غير تلك مروية قوهية ، فقبلتها وقالت : مثل هذا فاكسني . وقالت فاطمة بنت ابنها المنذر : ان أسماء لبست المعصفرات وهي محرمة ليس فيها زعفران . وقالت فاطمة أيضا انني ما رأيت أسماء لبست الا معصفرا(٤) حتى لقيت الله ، وانها كانت تلبس الدرع(٥) يقوم قياما من العصفر . وقالت أيضا : انها كانت تحرم في الدرع المعصفر المشبع يقوم قياما .

وروي أن الزبير طلق أسماء ، وذكر أن من أسباب الطلاق انها اختصمت معه ، فجاء عبد الله يصلح بينهما ، فقال الزبير : ان دخلت فهي طالق فدخلت ، فبانت منه . وحدث حماد ابن سلمة عن هشام بن عروة أن الزبير طلق أسماء ، فأخذ منها عروة يومئذ وهو صغير .

هكذا كانت حياة أسماء الزوجية صبرا واحتمالا ، وتربية وتوجيها وشجاعة . كانت حياتها الزوجية مثالية ، ولعل ما وصلنا من أخبارها هو قليل من كثير .

° ° °

أسماء تشد من أزر ابنها عبد الله

لما اشتد الحصار على عبد الله بن الزبير في مكة دخل على أمه أسماء ، وشكا لها خذلان الناس له ، وخروجهم الى الحجاج ، حتى أولاده وأهله . وقال لها : « ان القوم يعطونني ما شئت من الدنيا فما رأيك ؟ » قالت له : « يا بني أنت أعلم بنفسك ، ان كنت تعلم انك على حق ، وتدعو الى حق ، فاصبر عليه فقد قتل عليه أصحابك . ولا تمكن من رقبتك من يلعب بها من غلمان بني أمية . وان كنت تعلم أنك انما أردت الدنيا فلبئس العبد أنت أهلكت نفسك ، وأهلكت من قتل معك . وان كنت على حق فما وهن الدين ، والى كم خلودك في الدنيا ؟ القتل أحسن » . فدنا عبد الله من أمه أسماء وقال لها : « هذا والله رأيي » .. ثم قال : « والله ما ركنت للدنيا ولا أحببت الحياة فيها . وما دعاني للخروج الا الغضب لله أن تستحل حرماته ، ولكني أحببت أن أعلم رأيك ، فزدتني بصيرة على بصيرتي ، فانظري يا أماه فاني مقتول في يومي هذا ، فلا يشتد حزنك ، وسلمي لأمر الله ، فان ابنك لم يتعمد اتيان منكر ، ولا عمل بفاحشة قط ، ولم يجر في حكم الله ، ولم يغدر في أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ، ولم يبلغني ظلم عامل فرضيته ، بل أنكرته ، ولم يكن عندي آثر من رضى ربي عز وجل ، اللهم اني لا أقول ذلك تزكية لنفسي . اللهم أنت أعلم بي مني ومن غيري ، ولكني أقول ذلك ، تعزية لأمي لتسلو عني . » فقالت أمه أسماء : « اني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسنا أن تقدمتني ، أو تقدمتك . أخرج يا بني حتى أنظر ما يصير اليه أمرك . » فقال : « جزاك الله يا أمه خيرا ، فلا تدعي الدعاء قبل وبعد . » فقالت : « لا أدعه لمن قتل على باطل ، فلقد قتلت على حق . » ثم قالت : « اللهم ارحم طول ذلك القيام ، وذلك

---

(٢) الرضح : القليل من العطية . (٣) القرظ : ورق السلم يدبغ به . (٤) عصفر الثوب فتعصفر : صبغه بالعصفر فانصبغ والعصفر صبغ أصفر اللون . (٥) درع المرأة قميصها ، أو ثوب تلبسه في بيته .

النحيب ، وذلك الظمأ في هواجر المدينة ومكة ، وبره بأبيه وأمه . اللهم اني قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت ، فقابلني في عبد الله بن الزبير بثواب الصالحين الشاكرين . » ثم أخذته اليها فاحتضنته لتودعه ، واعتنقها ليودعها ، فوجدته لابسا درعا من حديد فقالت : « يا بني ما هذا ؟ ما هذا لباس من يريد ونريد من الشهادة . » فقال : « يا أمه انما لبسته لأطيب خاطرك ، وأسكن قلبك به ». فقالت : « لا يا بني ، ولكن انزعه ! » فنزعه ، وجعل يلبس بقية ثيابه ويتشدد ، وهي تقول له : « شمر ثيابك » ، وجعل يتحفظ من أسفل ثيابه لئلا تبدو عورته اذا قتل . وجعلت تذكره بأبيه الزبير وجده أبي بكر ، وجدته صفيه بنت عبد المطلب ، وخالته عائشة ، زوج رسول الله . ثم خرج من عندها ، فكان ذلك آخر عهده بها وعهدها به .

وروي أن عبد الله بن الزبير لما خيره الحجاج بين أن يذهب في الأرض ، أو يستسلم ويبعث للشام مكبلا ، أو يقاتل حتى يقتل ، شاور أمه أسماء فأشارت عليه بالثالث ، وروي أيضا انها استدعت بكفن ، وبخرته ، وشجعته على القتل ، فخرج بهذه النية ، فقاتل يوم الثلاثاء السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٧٣هـ قتالا شديدا ، فجاءته آجرة ففلقت رأسه ، فسقط على وجهه الأرض ، ثم أراد أن ينهض فلم يقدر ، فانكفأ على مرفقه الأيسر ، وجعل يحدم بالسيف ، فأقبل اليه رجل من أهل الشام فضربه فقطع رجله ، ثم تكاثروا عليه فقتلوه واحتزوا رأسه ، وكان مقتله قريبا من الحجون .

أسماء والحجاج

وروي أن الحجاج لما صلب ابن الزبير جاءت أسماء أمه ووقفت عليه طويلا ، ولم تقطر من عينها دمعة ، وانصرفت . وروى يحيى ابن يعلى التيمي عن أبيه ، قال : دخلت مكة بعد أن قتل ابن الزبير فرأيته مصلوبا ، ورأيت أمه أسماء عجوزا طوالة مكفوفة ، فدخلت حتى وقفت على الحجاج فقالت : « أما آن لهذا الراكب أن ينزل ؟ » فقال الحجاج : « المنافق ؟ » قالت : « لا والله ما كان منافقا ، وقد كان صواما قواما . »

قال : « اذهبي فانك عجوز قد خرفت . » قالت : « لا والله ما خرفت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يخرج من ثقيف كذاب ومبير ، فأما الكذاب فقد رأيناه وأما المبير فأنت هو . »

وقيل ان الحجاج دخل على أسماء وقال لها : « يا أماه ان أمير المؤمنين أوصاني بك فهل لك من حاجة ؟ » فقالت : « لست لك بأم . أنا أم المصلوب على الثنية ، وما لي من حاجة ، ولكن أحدثك أن رسول الله يقول : « يخرج من ثقيف كذاب ومبير » فأما الكذاب فقد رأيناه ، وأما المبير فلا أراك الا اياه . » فقال : « أنا مبير المنافقين » .

وقال الواقدي : لما قتل عبد الله بن الزبير خرجت اليه أمه أسماء ، حتى وقفت عليه ، وهي على دابة ، فأقبل الحجاج في أصحابه فسأل عنها فأخبر بها . فأقبل حتى وقف عليها فقال : « كيف رأيت ؟ نصر الله الحق وأظهره » . فقالت : « ربما أديل الباطل على الحق وأهله ، وانك بين فرثها والجنة . » فقال : « ان ابنك ألحد في هذا البيت وقد قال الله تعالى **(ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم)** وقد أذاقه الله ذلك العذاب الأليم . » قالت : « كذبت كان أول مولود في الاسلام بالمدينة ، وسر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وحنكه بيده ، وكبر المسلمون يومئذ ، وارتجت المدينة فرحا به ، وقد فرحت أنت بمقتله ، فمن كان فرح يومئذ بمولده خير منك ومن أصحابك ، وكان مع ذلك برا بالوالدين ، صواما قواما بكتاب الله ، معظما لحرم الله ، يبغض من يعصي الله عز وجل . أشهد على رسول الله سمعته يقول : « يخرج من ثقيف كذاب ومبير » وفي رواية : « سيخرج من ثقيف كذابان الآخر منهما شر من الأول وهو مبير . » فانكسر الحجاج وانصرف . فبلغ عبد الملك ما حدث فكتب له يلومه في مخاطبته أسماء . وقال له : « ما لك ولابنة الرجل الصالح » .

وأرسل الحجاج لأسماء — بعد قتله عبد الله ابنها — فأبت أن تأتيه فأعاد عليها الرسول لتأتيني والا بعثت اليك من يسحبك من قرونك . فأبت ، وقالت : « والله لا آتيه حتى يبعث من يسحبني بقروني . » فقال الحجاج : أروني سبتيي . فأخذ نعليه ثم انطلق يتوذق ، حتى دخل عليها فقال : « كيف رأيتني صنعت بعد ؟ . » قالت : رأيتك أفسدت عليه دنياه ، وأفسدت عليك آخرتك . بلغني انك تقول : يا ابن ذات النطاقين . أنا والله ذات النطاقين ، أما أحدهما فكنت أرفع به طعام رسول الله وطعام أبي بكر ، وأما الآخر فنطاق المرأة لا تستغني عنه . أما ان رسول الله حدثنا أن في ثقيف كذابا ومبيرا . أما الكذاب فرأيناه ، وأما المبير فلا أخالك الا اياه . » فقام عنها ولم يراجعها .

ميلاد أسماء ووفاتها

عمرت أسماء دهرا صالحا ، وقيل انها كانت صحيحة البصر ، لم يسقط لها سن ، ولم ينكر لها عقل ، وانها عاشت قرابة قرن من الزمن ، وقيل أنها أضرّت في آخر عمرها وانها توفيت بعد أن دفنت ابنها عبد الله بـ ١٠ أيام ، وقيل ٢٠ يوما وقيل أكثر من ٢٠ يوما ، وقيل عاشت ١٠٠ يوم بعد ابنها عبد الله ، وهذا القول هو الأشهر .

وتدل رواية القاسم بن محمد الثقفي على أن أسماء أضرت بعد قتل ابنها ، فقد قال : « ان أسماء أتت الحجاج بعد أن ذهب بصرها ومعها جواريها . » وكذلك فان الكسوة هدية ابنها المنذر لها ، ربما كانت بعد قتل ابنها عبد الله خلال المائة اليوم التي عاشتها بعد عبد الله فقد جاء في الرواية ان الهدية كانت في آخر عمرها بعد ما كف بصرها .

هذا ، وقد قال المؤرخون انها ولدت قبل الهجرة النبوية بـ ٢٧ سنة وأسلمت بعد سبعة عشر انسانا في مكة ، وتوفيت في سنة ٧٣ للهجرة . وكانت آخر المهاجرين والمهاجرات وفاة .

وبعد فهذه دراسة عابرة لفتاة من الفتيات المسلمات اللواتي استطعن أن يقدمن أعظم الخدمات للاسلام عند مشرق نوره الأول في الهجرة ، ثم ملأت الحياة الزوجية حيوية ونشاطا وعملا وكفاحا ، ووقفت في آخر عمرها في وجه الطغيان وقفة السميذع العنيد ، وضحت بابنها عبد الله في سبيل الحق والمثل العليا ، وشجعته على الاستشهاد وأن لا يعيش ذليلا . ■



دَوْرُ الصِّيانة في

الإنسان والآلة من أهم مقومات الصناعة الحديثة ، وهما عنصران متكاملان لا غنى لأي مؤسسة صناعية عنهما في سبيل تحقيق انتاج متزايد متطور . ولا بد لصناعة الزيت المتنامية أبدا من أن توافق بين هذين العنصرين لضمان اطراد نموها ورفع انتاجها ، وذلك بحشد الأيدي العاملة والآلات والمعدات ، التقليدي منها والحديث ، الخفيف والثقيل ، البسيط والمعقد وتجنيده في خدمة مخططات الانسان في مجالات التنقيب ، والحفر ، والانتاج ، والتصنيع ، والتسويق . بل وتسخيره في أداء مختلف الأعمال اللازمة لانجاز تلك المخططات وتحقيق أغراضها . وتلك الآلات والمعدات تحتاج – بلا شك – الى الصيانة لضمان انتاجها ، فكل صناعة تفتقر مرافقها الى الصيانة صائرة – كما هو معلوم – الى الانحلال والتقويض .

وصناعة الزيت تتطلب استخدام الآلاف من الآلات والمعدات والأجهزة . فوسائل النقل المختلفة من الجرارات الضخمة الى قاهرات الرمال ، ومن الطائرات الطوربينية أو النفاثة الى الطائرات العمودية ، ومن السيارات الكبيرة ذات الصهاريج الى السيارات الصغيرة ، تربط مناطق العمل بعضها ببعض بشبكة مواصلات عملية ونشطة . وبالمعدات الثقيلة من الجرافات الآلية



صناعة الزيت

الى مختلف أنواع الحفارات ، ومن الروافع صغيرها وكبيرها التي تعمل بالزيت أو الهواء ، تشقّ فرق العمال الطرق وتسهر على صيانتها ، وتمد مئات الكيلومترات من خطوط الأنابيب . والمنشآت الآلية الثابتة ، من معامل توليد الطاقة الكهربائية الى المراجل البخارية ، ومن الطوربينات الغازية الضخمة الى المكائن التي تدار بزيت الوقود أو الكهرباء ، تهدر أصواتها ليل نهار وتختلط بأصوات آلات معامل الحقن ، والتركيز ، وفرز الغاز من الزيت ، والتكرير ، ومحطات الضخ وغيرها ، فتصنّع الزيت الخام أو تنقله الى حيث يصنّع ، منتجات جاهزة للاستهلاك غدت تشكل أكبر مصدر للطاقة في عصرنا هذا . وبالأجهزة الدقيقة من المرسلات اللاسلكية الى شتى أجهزة القياس ، ومن آلات عرض الأفلام الى أجهزة المبرقات الطابعة ، ومن الآلات الحاسبة اليدوية الى الآلات الحاسبة الألكترونية ، يحتفظ القائمون على صناعةالزيت بسجلاتها وفقا لأحدث النظم والأساليب .

وكما يتعرض الانسان لمؤثرات التعب والهرم والمرض والأصابة بالحوادث ، تتعرض الآلة لمؤثرات الحرارة والرمل والاجهاد والبلي ، الأمر الذي يقتضي تجنيد عدد من الخبراء والمرافق لصيانتها والحفاظ عليها . من هنا انطلقت شركة

منظر عام لورشة اصلاح المعدات الثقيلة في الظهران حيث يجري استصلاح معدات الانشاء بكافة أنواعها .
ويرى في مقدمة الصورة بعض معدات الانشاء التي جرى استصلاحها تمهيدا لاعادتها الى الأقسام المعنية بالأمر .

السيد جابر عون ، من ورشة الصفائح المعدنية ، يحدث ثقوبا ذات حجم معين في صفيحة معدنية بواسطة آلـة ثقب خاصة .

الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) فأنشأت العديد من مرافق الصيانة الضرورية لأعمالها .

وكانت منطقة الامتياز حين بدء أعمال أرامكو حديثة عهد بالآلة اجمالا ، وبالصناعة الحديثة بشكل خاص ، لذلك كان من اللازم استجلاب المهارات الضرورية لتشغيل هذه المرافق من الخارج ريثما يتم تدريب مهارات محلية تحل محلها تدريجيا . وقد ساعدت ورش التدريب الصناعي الثلاث التي أنشأتها أرامكو في كل من الظهران ورأس تنورة وبقيق ، على امداد الشركة بمثل هذه المهارات حتى غدت معظم مرافق الصيانة التابعة لها تعتمد على المهارات المحلية في مختلف أعمالها ، كما ساعد على ذلك ، التدريب على هذه المهارات أثناء العمل .

وكان للتحسين الذي طرأ على مراحل انتاج الزيت واطراد نمو ذلك الانتاج أثر مباشر على تطوير المهارات المحلية ، فمع كل مرحلة من مراحل الانتاج ، كانت الضرورة تقتضي استخدام معدات جديدة . وبالتالي ايجاد مرافق لصيانة هذه المعدات . كما ان تنوع منتجات الزيت وظهور مشتقات جديدة ، كغاز البترول السائل مثلا ، اقتضى انشاء معامل انتاجية جديدة ، تحتاج معداتها الى أساليب صيانة جديدة . وبالاضافة الى ذلك يقتضي زيادة الطلب على نوع من منتجات الزيت في الأسواق العالمية تشغيل مزيد من المعدات اللازمة لأنتاج ذلك النوع ، وبالتالي توسعة مرافق الصيانة الخاصة بمثل تلك المعدات . وكذلك يستدعي اكتشاف حقول جديدة للزيت اقامة منشآت لادارة العمل ومرافق سكنية جديدة تستدعي بدورها ايجاد مراكز لصيانة المنشآت المقامة حتى تكون صالحة للاستعمال باستمرار .

وبطبيعة تمركز أعمال أرامكو في ثلاث مناطق رئيسية ، هي الظهران وبقيق ورأس تنورة ، أنشئت ثلاث ورش مركزية للصيانة واحدة في كل من هذه المناطق ، وخصّصت فرق متحركة لصيانة المنشآت والمعدات الثقيلة في أماكنها في المناطق النائية . حيث يتعذر نقلها الى مرافق الصيانة المركزية المذكورة بسرعة معقولة ودون تأخير في سير العمل في تلك المناطق . وتتعاون هذه الورش فيما بينها لانجاز اصلاح ما يطلب اليها اصلاحه كل حسب اختصاصها وحسب الامكانات المتوفرة لديها ، بل هي تكمل بعضها البعض . فكل واحدة منها تتميز بوجود حرفة أو أكثر فيها غير موجودة في الورشتين الأخريين ، وذلك لاحتياج احدى المناطق الى تلك الحرفة أكثر من غيرها ، كورشة المراجل وورشة تنظيف المعدات بالمواد الكيماوية في رأس تنورة مثلا .



السيد مطر بن خليفة المعيويد ، من ورشة الأدوات والكهرباء والتبريد ، يبدو منهمكا في اصلاح أحد الأجهزة الخاصة بعرض الصور .



السيد مجدوع سعيد الغامدي ، فني خراطة ، يقوم بخراطة قطعة من المعدن في دقة متناهية تمهيدا لاصلاحها وفق المواصفات الدقيقة المطلوبة .

وتنفرد ورشة الظهران بين هذه الورش الثلاث بحجمها وفعاليتها ، فهي عبارة عن عدة ورش مجمعة يحتضنها بناء حديث ضخم جدرانه من « الألمنيوم » الفضي اللون ، وتبلغ مساحته نحو ٥٥٠٠ متر مربع ، وارتفاعه ١٢ مترا ، أي ما يقارب ارتفاع بناية مؤلفة من ثلاثة طوابق . وتقسم هذا البناء عدة أعمدة وجدران فتقتطع منه جزءا لورش التدريب الصناعي ، وتوزّع بقية مساحته ما بين ورش الصيانة المختلفة المنضوية تحت سقفه ، كما تخصص جزءا من تلك المساحة لمكاتب اداريي هذه الورش التي تعتبر العصب الرئيسي لمرافق الصيانة في منطقة الظهران .

وفي جولة عابرة بين أجزاء هذه الورش المجمعة يرى الزائر في أحد الأركان مثلا محرك مولّد كهربائي قوته نصف مليون واط يعكف على فكه أو تركيبه أو اصلاحه مجموعة من الفنيين السعوديين ، في حين يبدو له في ركن آخر فني يطبق بمفكه على برغي صغير ليثبته في مكانه من عداد دقيق بالغ الحساسية . أو ان يرى أحد اللحامين يسلط لهيبا ساطعا أزرق على شفرة جرافة ضخمة ثلمها الاستعمال المتواصل ، في حين يعكف فني آخر على اصلاح ساعة أو آلة دقيقة بصبر وأناة .

وتضم الورش المجمعة في الظهران ست ورش هي : ورشة أعمال البناء ، وورشة المعادن ، وورشة التبريد والأجهزة الكهربائية والآلات الدقيقة ، وورشة الميكانيك ، وورشة اصلاح المحركات ، وورشة صيانة المعدات . وتقسم كل ورشة من هذه الورش الى عدة شعب تختص كل منها بصيانة نوع معين من الآلات والمعدات ، أو تزاول فيها حرفة معينة .

ورشة أعمال البناء

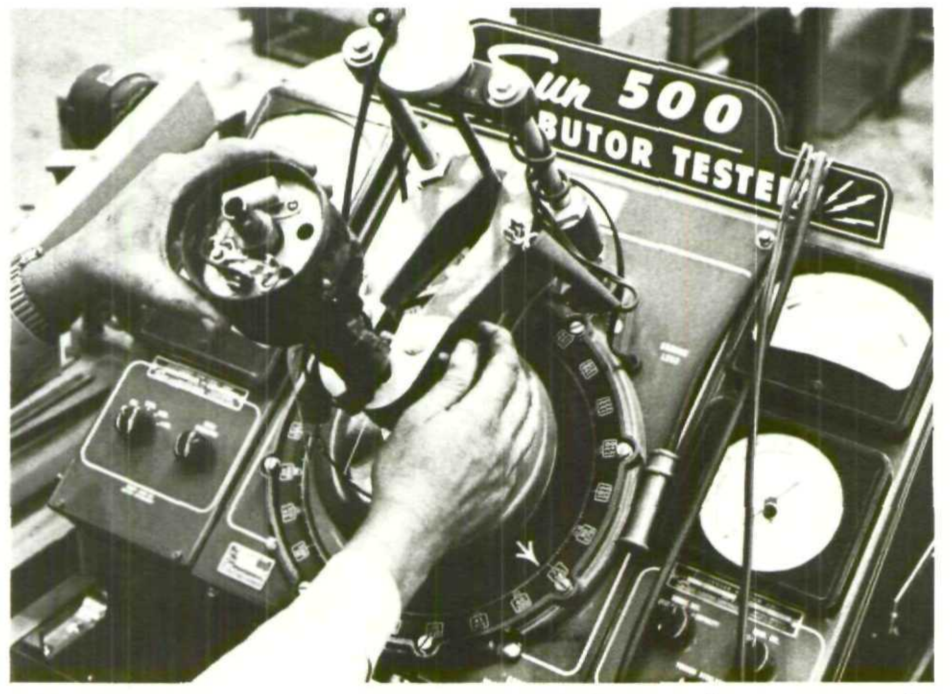
وتضم أربع شعب يعمل فيها ٣٦ موظفا . وهذه الشعب هي شعبة النجارة ، وشعبة صبغ السيارات واللافتات ، وشعبة نجارة الميدان ، وشعبة أعمال الصبغ العامة .

ورشة المعادن

وتضم خمس شعب يعمل فيها ٦٨ موظفا . وهذه الشعب هي شعبتان للصفائح المعدنية ، وشعبتان للحام ، وشعبة لتمديدات تكييف الهواء . وتتلخص أعمال الورشة في لحم الأنابيب والمعادن



السيد سيد محمد الشاخوري ، فني في وحدة الصفائح المعدنية ، يضع اللمسات الأخيرة على صندوق معدني تم صنعه في الوحدة المذكورة .



الأيدي الماهرة تفحص الأجزاء المعتلة في شبكة توزيع الكهرباء ، تابعة لاحدى سيارات النقل في الشركة . ويرى هنا السيد عيسى بن حسن ، من ورشة التبريد والكهرباء ، أثناء قيامه بمهمة الاصلاح المطلوبة .

المختلفة وقطعها ، وأعمال تمديدات تكييف الهواء وصناعة جدران الخزانات والأوعية المعدنية على اختلاف أشكالها وحجومهـا ، وهياكل الثلاجات التابعة لسيارات التبريد ، وغير ذلك .

ورشة التبريد والآلات الدقيقة والأجهزة الكهربائية

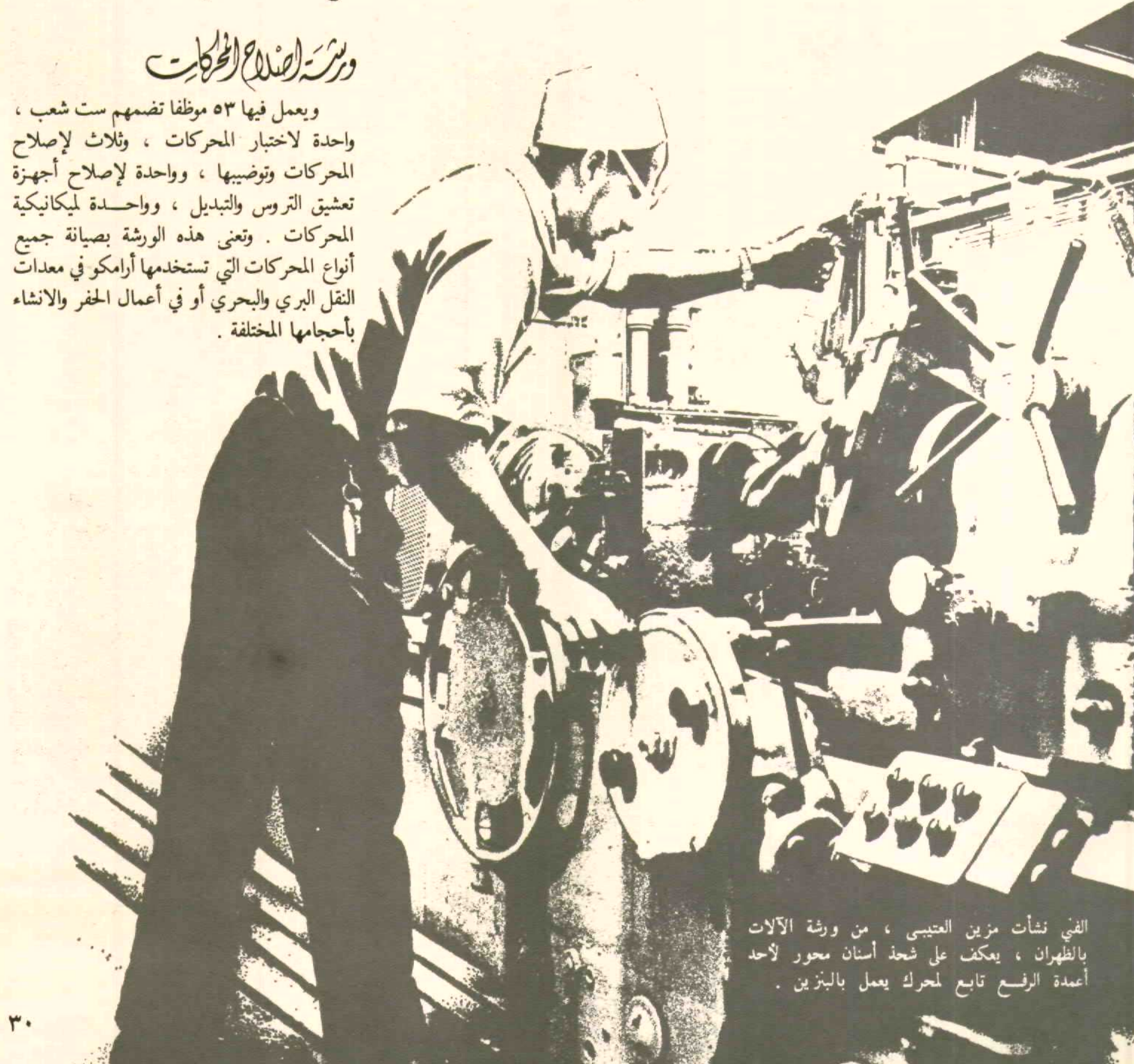
ويعمل فيها ٦٦ موظفا تضمهم سبع شعب هي : شعبة الموتورات الضخمة ، وشعبة الموتورات الصغيرة ، وشعبة ملحقات المحركات ، وشعبة الموتورات المساعدة (Relay Segment) ، وشعبة الآلات الدقيقة ، وشعبة أجهزة المكاتب ، وشعبة التبريد . ولعل هذه الورشة من أنشط ورش الصيانة في الظهران ، ويعود ذلك الى طبيعة أعمالها المتباينة . ففي شعبة التبريد يعكف الفنيون على تصليح أجهزة التبريد المختلفة ، في حين يعكف فنيو شعبة الآلات الدقيقة على اصلاح مختلف أصناف هـذه الأجهزة كالعدادات بأنواعها وأجهزة اللاسلكي والآلات الحاسبة والكاتبة وأجهزة العرض والساعات . أما شعب الموتورات وملحقاتها فانها تعنى بالأمور الميكانيكية والكهربائية لمختلف أنواع الموتورات .

ورشة الميكانيك

ويعمل فيها ٥٣ موظفا ، وهي مؤلفة من خمس شعب ، اثنتان منها للميكانيك وواحدة لاصلاح الصمامات واثنتان للخراطة . وتضطلع هذه الورشة بمهام صيانة قطع محركات السيارات والآليات وابدالها بقطع جديدة يصنعها فنيو الورشة على آلات الخراطة الحديثة المتوفرة لديهم بأشكال مختلفة . وتقوم شعبة اصلاح الصمامات بصيانة مختلف أنواع صمامات خطوط أنابيب الزيت والماء ، ومحطات ضخ الزيت ، ومضخات الماء وغيرها . كما تقوم الورشة في الوقت نفسه بصنع قطع الغيار المختلفة التي تحتاجها الورش الأخرى .

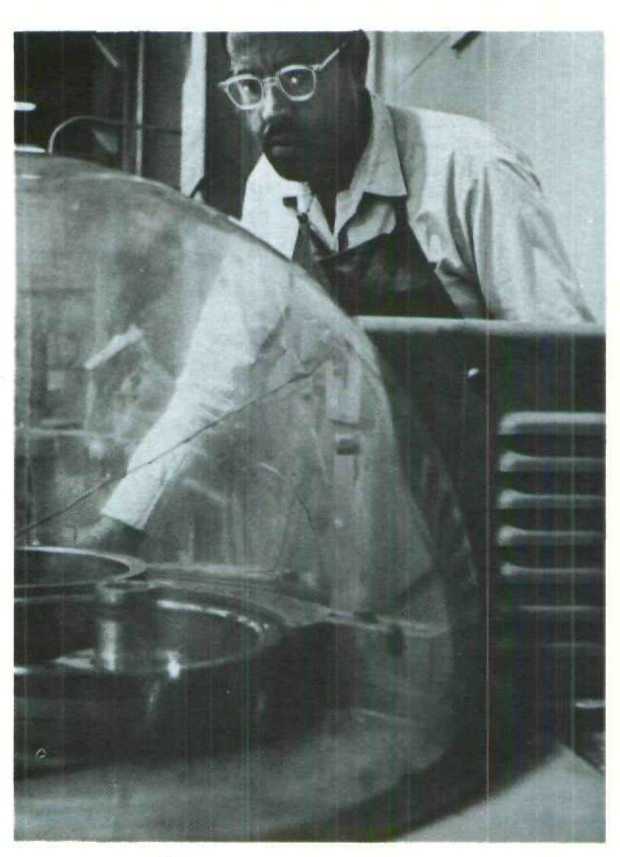
ورشة اصلاح المحركات

ويعمل فيها ٥٣ موظفا تضمهم ست شعب ، واحدة لاختبار المحركات ، وثلاث لإصلاح المحركات وتوضيبها ، وواحدة لإصلاح أجهزة تعشيق التروس والتبديل ، وواحـدة لميكانيكية المحركات . وتعنى هذه الورشة بصيانة جميع أنواع المحركات التي تستخدمها أرامكو في معدات النقل البري والبحري أو في أعمال الحفر والانشاء بأحجامها المختلفة .

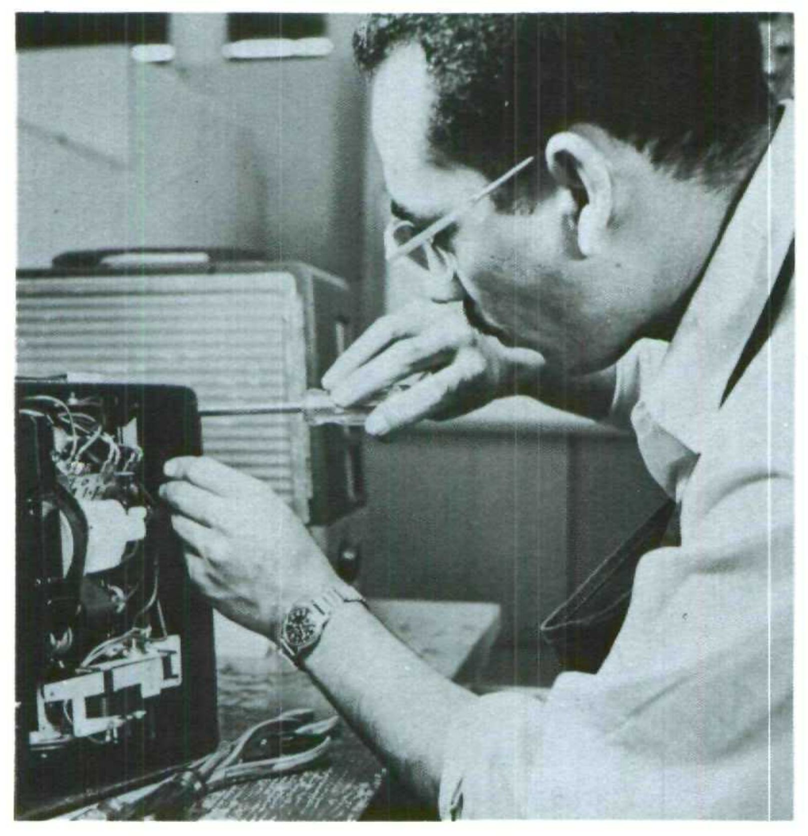


الفني نشأت مزين العتيبي ، من ورشة الآلات بالظهران ، يعكف على شحذ أسنان محور لأحد أعمدة الرفـع تابع لمحرك يعمل بالبنزين .

السيدان علي صفر وعبد الله سيف ، من ورشة اللحام أثناء ، قيامهما بلحم ركيزة تابعة لمحرك يعمل بالديزل .



السيد عبد العزيز الجريفاني ، من ورشة الآلات يتفحص قطعة آلية بعد اصلاحها بواسطة هذا الجهاز الأسطواني .



الفني أحمد بن مبارك العماري ، من ورشة التبريد والأدوات الكهربائية ، وقد بدا منهمكا في اصلاح احدى ساعات التوقيت المستخدمة لدى الادارة الطبية في أرامكو .

ورشة صيانة المعدات

ويعمل فيها ٥٤ موظفا تضمهم ست شعب هي : شعب التفتيش ، وصيانة الجرارات ، وصيانة المحادل ، وصيانة الضاغطات والمولدات ، وصيانة السيارات الرافعة ، وصيانة الرافعات المشعبة . ولضخامة المعدات التي تعنى هذه الورشة بصيانتها واصلاحها فان معظم أعمالها تجرى في الساحة المواجهة لبناء الورش المجمعة ، غير أنها تعتمد في كثير من الحالات على الورش الأخرى في اصلاح القطع الصغيرة أو خراطتها .

واذا عاودنا النظر الى بناء الورش المجمعة في الظهران ككل ، لاحظنا أن الهدف من تصميمه هو انجاز أعمال الصيانة بكفاءة تامة مع الاهتمام الى أقصى حد ممكن بسلامة العاملين فيه وراحتهم . ويتميز هذا المبنى عن غيره من مباني ورش الصيانة التقليدية ، بالنظافة والترتيب وحسن الانارة ، وهو مكيف بالهواء بكامله . وتمتزج فيه ألوان كثيرة ذات دلالات معينة . فاللون الأخضر يدل على أن الآلة أو الجهاز المصبوغ به قابل للحركة ، واللون الفضي اللامع يدل على المثاقب والآلات القاطعة ، واللون الأحمر على معدات مكافحة الحرائق ، والأزرق على صهاريج النيتروجين ، والبرتقالي على مفاتيح الكهرباء ..

ولم يكن عبثا تعدد هذه الألوان وتباينها ، ففي مبنى ضخم كمبنى الورش المجمعة في الظهران حيث يعمل ما يزيد على ٣٠٠ موظف ، يجدر بكل منهم أن يجد بمجرد النظر بغيته ، وأن يحذر مكامن الخطر بيسر ووضوح حتى يتسنى له تأدية واجبات عمله بصورة منتظمة دونما تأخير . ولضمان السلامة ميزت الممرات بالصبغ الأصفر ، وأحيطت آلات الخراطة والقطع بحواجز واقية . كما ان كل آلة من آلات الورش محاطة بأرضية خشبية تحول دون انزلاق أقدام العاملين عليها . ولا تقتصر احتياطات السلامة على توفير معدات السلامة ووسائلها لكل فرد ، بل تشمل اجتماعات أسبوعية ونشرات دورية تبحث أصول السلامة وأنظمتها بغية تكريسها في أذهان جميع العاملين في الورش كشعار نظري ومنهج عملي في آن واحد ، وحثهم على تطبيقها ومراعاتها أثناء العمل وخارجه .

والبناء بالاضافة الى ذلك تغطي جدرانه مواد عازلة للصوت ، تدفع عن آذان العاملين في الورش ضجيج الآلات وضوضائها كي ينصرفوا الى الانتاج بأقصى اهتمام ممكن ■



معظم عمليات القطع والتجويف ، والتثليم ، والتفريز ، التي تتطلبها محاور الأعمدة وتروس التعشيق في كثير من الآلات والمحركات ، يجري انجازها بواسطة هذه الآلة المعقدة التركيب . ويرى هنا السيد صالح محمد العتيبي ، من ورشة الآلات يقوم بثقب محمل محوري (Bearing) خاص بعمود تابع لاحدى الآليات .



آلاف الصمامات على اختلاف أحجامها ترد شهريا الى ورشة الآلات في الظهران ، لتوضيبها واصلاح العطب اللاحق بها بغية اعادتها الى حالتها الطبيعية . ويرى في الصورة السيد فهد محمد النسيب من ورشة الآلات في الظهران أثناء قيامه باصلاح أحد الصمامات . تصوير : علي محمد خليفة

مطالعات الصبا ومؤلفات الشباب

بقلم الاستاذ أحمد أبو الخضر منسي

كنت وقد علت بي السن ، وزحفت الى الخمسين ، وقد نجذتني أيام وأدبني دهر ، أكّدت الى نفسي فيما طالعت أزمان الصبا ، والعود لدن والشباب غض ، من كتب كثيرة ، وتدبرت كيف لم أفد منها شيئا مذكورا حتى عدت بأخرة الى قراءة بعضها مما عرفت قيمته وفائدته ، فكأنما أنا أتلو جديدا طريفا . بل لقد أصابني من بعض ما طالعته من كتب والغصن رطيب ، والعيش غرير ، ضر وأذى كبير ، تخلفت لي منه في رجولتي آثار بالغة استعقبت منها الندامة .

كذلك كنت أرجع البصر كرة في بعض ما ألفت أو ترجمت من كتب في ذلك العهد ، فكنت أجدني قليل الرضى عما أعجلت من عمل كان يتوفر له ما أريده له اليوم من اتقان ، لو أني أبقيته الى سن التجاريب ووفور التحصيل ، وزيادة العلم والمعرفة .

وكنت من قريب أعود الى قراءة كتاب « الاسلام خواطر وسوانح » للكونت هنري دو كاستري . وكان مؤلف هذا السفر النفيس قد شاهد في ريعان شبابه صلاة المسلمين في صحاري بلاد المغرب ، وقد أذن المؤذن ، فترجل المسلمون من على صهوات خيولهم ، يقيمونها خشعا ساجدين . فأكبر « الكونت » ما رأى ، وراعه جلال هذا القنوت لله ، وأشرب قلبه حب هذا الدين . فهم أن يكتب يومذاك ما جاشت به نفسه ، ولكنه أمسك واستأنى . فلم يكتب ما كتب الا بعد أن فثأت الأيام بكرورها من حميه . وفي ذلك يقول في كتابه :

« كنت في سن يستسهل العقل فيها حل المشكلات ، ويأخذ الأشياء من ظواهرها . ويحل الخيال فيها محل النقد والتنقيب ويعتقد المرء في الأمور بغير قيد . وهي سن لو أنصف أهلوها لما كتبوا وألفوا . وكنت أرى أن جمال الدين أصدق شاهد على أنه الدين الحق ، وصرت أكتب في الاسلام غير شاعر بما يخطه القلم طوع الفؤاد » . الى أن يقول :

« ولو أني أتبعت مجرد الظواهر ، وقضيت على الأمور بغير تأمل وتدقيق لجاء كتابي مذموما ، ورماني المستشرقون بالخفة والطيش ، كما يرمون بحق بعض مؤلفي الجزائر من الأوربيين » .

أما حين تناهى شباب « الكونت » وأمسى رجلا مستويا ، موفور التجارب ، مكيث النظر في الأمور ، حصيف الرأي . فقد كتب في الاسلام خير كتاب يرضي المسلمين والمستشرقين والعقلاء المنصفين .

قرأت هذه السطور التي خطها الكاتب الكبير « دو كاستري » في كتابه عن الاسلام ، في ما يؤلفه المؤلفون ، وهم في غلواء الشباب ، ما زالوا في بواكير التجارب ، وعصف الخيالات ، فطاب عندي مذاقها ، وطربت لهذا التوارد في الخطواطر بين كاتب وكاتب فقلت لأكتبن في هذا ، وأعرض صفوة اختباري ، فاني أحسب أن فيه لفتياننا خاصة ، عظة ودروسا نافعة .

نشأت مولعا بأصناف من الكتب تردّ الى ثلاث شعب : كتب اللغة والأدب ، وكتب الفلسفة والعلوم ، وكتب الأقاصيص والروايات . وكان للقصة والرواية عندي في سن المراهقة منزلة الصدر . فما أبقت مطالعتي على شيء منها ، أما جانب الفكر فيها فضئيل ، وجنى الحكمة والمعرفة بكيء يسير . وما عثرت على ذلك الا في بعض الروايات لطائفة من مشهوري كتاب فرنسا ممن يضمنون رواياتهم جملة طيبة من الحقائق والمقررات العلمية . أما الجانب النفسي والخلقي فقد خرجت منه بالمضرة البالغة . فان في طبيعتي ميلا الى التطوح في مفازات الخيال ، وأودية الأحلام ، وفرط الحساسة وغلبة العواطف . فلقد قلبت الرواية والقصة في عيني الحياة — وحسب الشباب جهله بالحياة ! — وأصارتني الى حال من يريد ارادة المتعنت المشتط تطبيق الذي أقرأه في القصص على ما أنا صانع بالناس وما الناس صانعوه بي ، متعاميا عن حقائق الأمور . فأوذيت من بعض الناس بالخديعة ، وسلوكهم معي الطرق الملتوية ، وأنا أريدهم أن يسايروني على الصراط المستقيم ، فما يبغونها الا عوجا ، وأوذيت من صروف الزمان بعصياني لها في مجراها ، ومجالدتي لها في ما سن لها وقضى . فلم أفق الا يوم وافيت الأربعين ، وما بيدي شيء من شتى الفرص التي عرضت لي في تلك السنين المدبرة سدى .

أما كتب اللغة والأدب والعلوم والحكمة ، التي خضت فيها خوضا وأنا غلام طرير ، فما أفدته منها على كثرة الغوص والتنقيب ، كانت كالرؤى . فلما بلغت أشدي بتعالي السن ، عدت الى ما قرأته منها فكأنني كنت أقرأ منها ما لم أقرأه من قبل ، وكان انتفاعي بها جسيما . وأضرب لك مثلا بطائفة من كتب قيمة تلوتها في سن الحداثة ، فلم أفد منها شيئا مذكورا ،

فلما علت السن ونضج الفكر ، عدنا الى قراءتها ، فأجدت علينا وأخصبت ، وكان فضلها وفيرا . فمنها كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ و « الأمالي » لأبي علي القالي ، و « خزانة الأدب » للبغدادي ، وكتاب « التربية الاستقلالية » لألفونس اسكيروس . هن وأشباههن من نفيس التصانيف ، وعيون الأسفار لم يستقم ميزانها الا حين أرجعت وأنا في سن رجاحة العقل وحسن الرأي .

أما مؤلفاتي التي أخرجت للناس بكورتها في ميعة الشباب ، فما أنا عنها اليوم براض كل الرضى وأجدني بحاجة الى أن أكتبها من جديد بقلم السن التي هذبها صقال الدهر ، واتساع المعرفة . وما أحسن ما كتب الجاحظ في ذلك اذ يقول :

« وينبغي لمن كتب كتابا ألا يكتبه الا على أن الناس كلهم له أعداء ، وكلهم عالم بالأمور وكلهم متفرغ له . ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه يغب ويختمر . ولا يثق بالرأي العظيم فان لابتداء الكتاب فتنة وعجبا . فاذا سكنت الطبيعة ، وهدأت الحركة ، وتراجعت الاخلاط ، وعادت النفس وافرة ، اعاد النظر فيه ، وتوقف عند فصوله توقف من يكون وزن طمعه في السلامة ، أنقص من وزن خوفه من العيب » .

ثم هل تراك وجدت كتابا ممجدا على الدهر الا وقد أحدثه صاحبه ، وهو في اعتدال العمر ، ونضوج الرجولة ؟ كل عمل جليل وصنع بديع ان هو على الأرجح ، الا نتاج سن الأربعين أو حواليها . ولك في سيرة الأولين والآخرين من الجلة الأعلام مصداق ما نقول :

فهذا فيلسوف المعرة ، رهين المحبسين أبو العلاء المعري ، كان أشهر مصنفاته ديوان أشعاره الفلسفية « لزوم ما لا يلزم » ، فقد كان من أشعار المدة الثانية من حياته ، حين كبرت سنه ، وبلغ الغاية من الحكمة والتجارب . وهذا ابن رشد فيلسوف الأندلس كان عميد كتبه ، وأشهر مصنفاته شرحه الكبير لمصنفات أرسطو ، فقد أخرجه للناس وهو في الخامسة والأربعين .

واذكر من شئت من أعلام الشعر واللغة والفلسفة والعلوم في تاريخ الأدب العربي « كالمتنبي » و « أبي الفرج الأصبهاني » صاحب كتاب الأغاني ، و « ابن جني » صاحب الخصائص ، و « المبرد » صاحب الكامل و « الفارابي » ، و « ابن سينا » ، فانما وضعوا جليل مصنفاتهم وآيات نبوغهم وهم في سن الأربعين أو ما حولها . ونذكر من كتّاب الغرب « وولتر سكوت » الروائي الانجليزي الذي وضع أشهر مؤلفاته وهو في سن الأربعين ، و « دريدن » الشاعر الانجليزي المعروف نضج شعره وهو في سن الثانية والأربعين .

هذا وما وزنت كتب الفلسفة والعلوم والأدب حق وزنها ، الا حين شارفت الكهولة ، فكنت أعيد تلاوتها فاذا هي كنوز وذخائر غنمت منها غنما كبيرا .

أما ما ألفته في أزمان الشباب ، فمع حرصنا منذ نبت العذار على الاجادة ، فانني اليوم ، حين أعيد النظر ، أجدها لا تبلغ من نفسي الرضى الذي تلقاه مني ، لو كانت مكان ما أخرجته منها في سن النضج والاستواء .

ولدي من ذلك أمثلة كثيرة على أن الصبا قلما يجيد أو يبدع وانما سن الاعداد وتهيئة المجوّدات ، التي هي مواليد الرجولة المحنكة .

ولا أريد بهذا أن يجعل الشباب يده مغلولة الى عنقه ، يمضي في سربه ، ويعيش سبهللا ، ويمرح في لهو وبطالة ولكن ليقرأوا كثيرا مما يكون أليق بهم ، وأدنى الى الحقائق ، وأجدى عليهم من صنوف المعارف . ومن كان منهم مؤهلا للتأليف فليؤلف . ولكن فليعلموا أنه ليس التأليف الذي يقع يقرّ ، ويصيب الهدف ، ولكنه جسرهم لا بد عابروه ليصلوا الى ما سوف يجدون به برد السرور ويصيبون ثناء الناس واستجادتهم .

ومن العبث والجنف أن نطمع من أهل طراءة السن من الشباب أن يتعقلوا ما يطالعونه من كتب تعقل ذي السن الناضجة والعقل الوافر . أما علمت أن علوم البشر وآدابهم قد تداولتها عصور ، وتعاقبت في تكوينها وتعظيمها حقب وأجيال ؟ فالعقل البشري خاضع لهذه السنة التي خلت من قبل ، وهو لا يجد مصرفا عن سلوك هذه الجادة ، فيما يكتسب ويحرز من معارف . فالعقل في الناشيء اذ يترعرع ويلج أول ما يلج ميدان الرجال ، له حدود معينة يبلغ فيها قوته واستواءه ، ويمسي أهلا للكسب وحسن الاستفادة . ولا بد له من توفية مدة صقاله ، وغاية مسراه وعهود تغلغله وتمخضه حتى يصير الى الاتزان والاستقرار . لهذا كانت استفادة الشباب بمطالعته سقيمة غير مرضية.

والذي أراه للشباب أن يكون هدفهم الأول أن يقرأوا ما له بعلومهم الدراسية ، صلة متينة ، وليتجنب الأحداث والمراهقون مطالعة الروايات والقصص . ذلك ان هذه الروايات انما لها مواد وغذاء من الخيال ، وفي كل واد فيه تهيم ، وتعرض عليك صورا من الحياة هي في الغالب غير ما أنت راء ، ويلقاك في الحياة كل يوم . اذ الذي يعيش مع الناس ويبغي في الحياة نجاحا ، وفي أموره يسرا وتوفيقا . يجب عليه أن يستبضع الحقائق ، وان لا يجمع على نفسه من هذه الخيالات الا على قدرة .

ولتكن أكثر عناية الشاب في ما يقرأ مبذولة في الاطلاع على كتب العلوم وما تضمن منها صنوف الحقائق وماديات الحياة التي يقوى بها عقله ويستحكم بها فكره ، ولا سيما الكتب التي تذكي عزيمته ، وتشحذ همته ، وتفتنه بالكدح والجهاد وتغريه بحب المعالي ، أمثال كتب السير والتراجم ، والكتب التي وضعها مؤلفوها لهداية الشباب الى سبيل النجاح التي تبسط له حياة عظماء الرجال من المصلحين والمخترعين والمكتشفين . وأنا موقن اذا فتياننا طالعوا هذه الكتب مطالعة الامعان والروية ، بأنهم سيشقون طريقهم في الحياة بعزم كصلاب الصخور ، ويكون سهمهم في الحياة فالجا وظفرهم محققا مضمونا .

واني أنصح شبابنا اذا ما توخوا الجيد المفيد من الكتب أن يعيدوا قراءتها في مراحل حياتهم مثنى وثلاث ورباع . فان الافادة في الاعادة ، وفي ذلك يقول اللورد « دولي » في كتاب « سر النجاح » الذي ترجمه الدكتور صروف :

« اني مغرم بالاقتصار على الكتب المفيدة التي طالعتها وعرفت فائدتها . وأشهد أن قراءة كتاب عتيق مرة ثانية أفضل من قراءة كتاب جديد لم يقرأ قبلا ، ان لم يكن ألذ منه . »

ولعمري ما وجدت شيئا هو أمتع من المطالعة ، فهي الصاحب المواتي ، والرفيق الموافق والخل الوفي ، والمعلم الناصح الذي يرد عنك أذى الناس وشرورهم . وفي ذلك يقول شوقي :

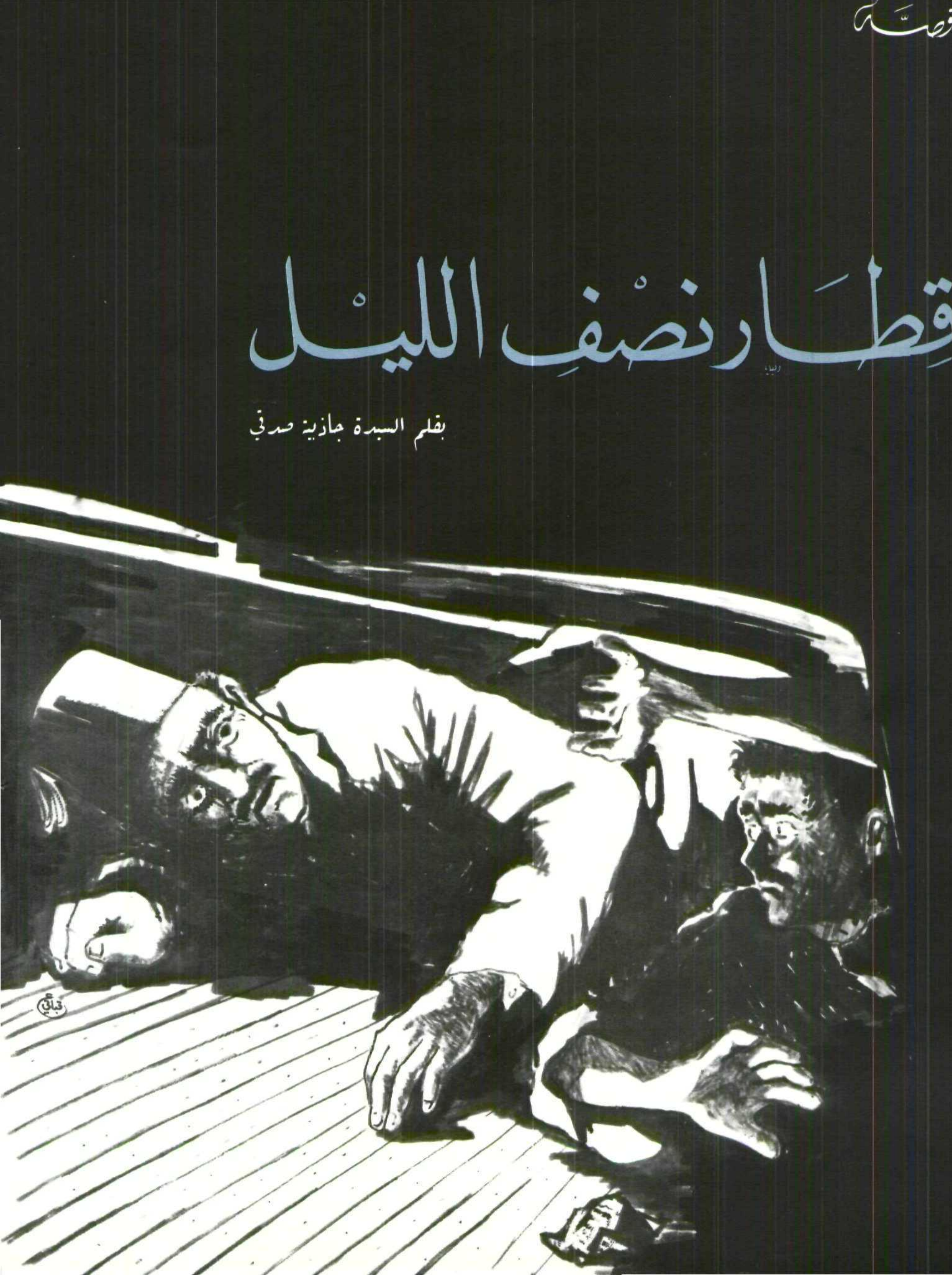
أنا من بدل بالكتب الصحابا
لم أجد لي وافيا الا الكتابا

وقد قيل للخليفة المأمون : « ما ألذ الأشياء ؟ » قال : « النزهة في عقول الناس » .

واسمع بلاغة الجاحظ وروعة بيانه في الكتاب حيث قال : « هو المعلم الذي اذا افتقرت لم يحقرك ، وان قطعت عنه المادة لم يقطع تلك الفائدة ، وان عزلته لم يدع طاعتك ، وان هبت ريح أعاديك لم ينقلب عليك . ومتى كنت منه متعلقا بسبب أو معتصما بأدنى حبل لم تضطرك معه وحشة الوحدة الى جليس السوء . » ■

قطار نصف الليل

بقلم السيدة جاذبية صدقي



صديقي العجوز . قطار الصعيد هذا ! يقول لي أشياء وأشياء وأنا قابع في ركني العتيد من احدى عرباته . كل خميس تجدني هناك . أصغي اليه بلا ملل وهو يحملني الى صغاري في العاصمة من القرية النائية الناعسة في أعماق ربوعه . حيث أعمل موظفا بسيطا في ضيعة تابعة لوزارة الأوقاف . ربما تسألني لم لا أصطحب صغاري هؤلاء وأمهم معي ، فأجيب أن صغاري هؤلاء أصبحوا كبارا يطلبون العلم في الجامعة — الفتيان منهم والفتيات . ومع ذلك أسميهم « صغاري » — هل يلومني أحد ؟ ثم أنهم عندما كبروا وشبوا عن الطوق ، كبرت أنا أيضا . فالنسبة محفوظة .

عجيب والله أمر هؤلاء « الصغار » ومـا يفعلونه بنفوسنا ! فأنا مثلا لم أضق يوما بنفقاتهم وطلباتهم ومشاجراتهم ومصالحاتهم ومتناقضاتهم .. حتى آراؤهم التي يفرضونها علي لم أضق بهـا ، ولا أضيق بها اليوم ، مع أن ظهري قد انحنى وكساني المشيب .. لكنه قط لم يمس روحي .. شابة تتقافز ، وتراقب الكرة « الشراب » في الحارة ، وتهوى حلوى « المضاغة » وأراجيح المولد .. عندمـا أرى « صغاري » يتقافزون ويفعلون هذه الأشياء كلها . ثم استوت روحي شابة متفتحة متطلعة ، تتدفق بآمال وحيوية .. مثل أبنائي . والآن روحي في الجامعة ، معهم أيضا . وكل خطوة من حياتهم أحياها معهم ، وتنعكس عليّ انفعالاتهم وانطباعاتهم واتجاهاتهم. أعيش شعورا كابدوه ، وأتذوق ابتسامة انفرجت بها وجوههم ، وأستمتع بكل احساس نعموا به ، وأضحك مع كل ضحكة تفجرت عنها قلوبهم الفتية . خير أكسير في الدنيا هذا ، صدقوني ! حياتي حلوة متدفقة متجددة أبدا ، كأنما في أعماقها عين خفية عذبة فوارة .

فكان ان تركتهم في العاصمة . وكنت استشعر بفرحة كبرى تتجدد كل خميس وأنا أصعد الى القطار ليحملني اليهم ، وأقبع في مقعد واحد لم أغيره طوال السنوات العشر التي عشتها وحدي . ثم أغمض عيني ، أو لا أغمضها وأنا ألملم فرحتي حولي ، كأنها رداء سابغ واسع فاخر وثمين يلفني من قمة رأسي الى أخمص قدمي . وأصغي الى الضجيج الذي يصنعه صديقي القطار العجوز .. من فرط امتناني وفرحتي . أصغي اليه . لعبة هذه ابتكرتها بيني وبين نفسي لتذوب الساعات الطويلة .. حقا ثرثار هو ، صديقي القطار ، لكنني لا أضيق بثرثرته تلك التي ترن في أذن غيري صلصلة سلاسل ودمدمة عجلات وصفير وشهيق وزفير ، وهو يلهث مزمجرا يحملنا في قلبه . ويجر وراءه عرباته المتهالكة مثله ، والتي تتعلق متشبثة بعنقه .. عربات تكاد تحجل ، لا تجري من فرط عجز ، ثم أن من شبابيكها ما لا مصراع له ، فتبدو كأفواه هتماء فاغرة عن كبر أو عن ارهاق ، وهي تلهث وتبتلع الهواء ابتلاعا .

وابتسم في ركني ، وتتسع ابتسامتي وأنا أتخيلها مشاجرة .. تلـك الصلصلة وتلك الجلبة والضوضاء بـين القطار وبـين نسائه الكثيرات اللاتي ربط نفسه بهن أيام الشباب وعنفوانه ، فجثمن الآن على أنفاسه في كبره يمسكن بتلابيبه لا يفلتنه . وكثيرا ما تهاوى هذا القطار المسكين ، يمضي الليل بنا الى جوار قناة ، كسير البدن والنفس كأنما غشي عليه ، فيلتف حوله مسئولون بقناديل كاشفة يتحسسونه ، ويصغون لنبضاته ، ويسقونه ماء ويريحونه حتى يبترد ويسترد قوته .

واليوم كاد يفوتني ، لكنني ركضت خلفه حتى لحقت به ، فقفزت أتشبث بآخر عربة ، وسرت عبر ممراتها الى عربة أخرى ، ثم أخرى ، ثم أخرى ، أتعثر في سلاسل وغرارات وقدور تملأ خياشيمي منها رائحة الجبن المعتقة بـ « المش » ، وأرغفة « البتاو » بالحلبة ، وفحول البصل الصعيدي . رائحة نفذت كسحب دخان قوية غير مرئية الى خياشيمي ، تتعلق بثيابي وتبصمني ، لتفوح مني بدوري .. ومع ذلك ابتسمت لها . لم أغضب ، وهل يغضب المرء من معارفه عندما يحيونه بطريقتهم الخاصة ؟ وتلك الروائح لي بها معرفة هي تاريخ حياتي لن أتنصل منها . أحبها ، فلي معها ذكريات غالية سعيدة تبعث دفئا في أوصالي .

كانت تلك الأفكار الهانئة تملأني برضا ينفرج لـه فمي عن ابتسامة لا تغيب ، وأنا أقفز فوق « مشنة » ، أو أتـفادى الارتطام « ببلاص » حتى وصلت الى ركني المعتاد في حجرة لها باب زجاجي . فما كدت أفتحه حتى لطمتني رائحة أخرى حادة وغريبة عني . !

يا الهي ، ماذا دهى يومي ؟.. اللهم اجعله خيرا .

ترنحت ، وكأنما تربصت بي قبضة غادرة في الغبشة السادلة . غبشة لا يخفف منها سوى كوب نور يعلوه تراب سنين معلق في السقف المقوس ، نور أصفر سقيم هزيل يخبو حتى يكاد يخمد ، ثم يضيء ، ثم يخبو ويضيء ثانية .. وكأنه عين تقاوم النوم .

وضعت سلة البيض الصغيرة التي أحملها هدية لأولادي . عند قدمي . وارتميت أنا في ركن من المقعد ، وأخذت أدور بعيني في الحجرة الضيقة المألوفة . ولكن ما لبثت عيناي أن تسمرتا على الرف المعلق فوق المقعد المقابل .. فقد كان يطل عليّ منه رأس ضخم لغزال عولج بأحماض أغلب الظن أنها هي التي كانت تنفث تلك الرائحة الغريبة النفاذة ، وبرزت منه قرون طويلة ملتوية نافرة كأنها الثعابين ، أو كأنها غصون متفرعة لشجرة غريبة نادرة .

وكان تحت الرف على المقعد صرة ثياب حجز بها صاحبها لنفسه مكانا . لا بد أنه مكافح مثلي ، امتصت شبابه المسئوليات ولعقت صحته الهموم ، ويطالبه أولاده بأشياء عجيبة .. أنا نفسي طالبني أولادي ذات مرة بثعلب حي . ومرة أخرى مجموعة عقارب لابني طالب الصيدلة .

هكذا الأبناء ، كان الله في عون هذا الأب الذي حجز مكانه أمامي ! لقد أخذ قلبي يرف حوله قبل أن أراه . لا بد أنه الآن وسط الزحام في الخارج يودع أهلا . أو يشتري لنفسه سميذة وبيضتين . أو لعله عود قصب ، ذلك الذي ذهب يشتريه ، فيكسره على ركبته الى نصفين ، ويمد يده اليّ – زميله في السفر – بالنصف الحلو الذي تتفرع منه الجذور . فأهل الصعيد يؤثرون الضيف أو عابر السبيل على أنفسهم . لكنني بالطبع سأرفض تأدبا ، وأكتفي بعقلتين من نصف العود العلوي حيث تقل الحلاوة . لكننا سنهنأ بصحبة بعضنا البعض ونحن نمتص عصير القصب بقدر ما تسمح أسناننا . وسوف أعطيه أنا نصف الدجاجة التي حمرتها لعشائي « أم اسماعيل » . وسوف يرفض بدوره ، لكنني سوف ألح عليه الحاحا شديدا حتى يقبل . فأناوله معها رغيف « بتاو » ونصف الدجاجة فوقه . ونأكل ونسعد ويمر الوقت ونحن نتضاحك ونحكي نوادر عن أطفالنا – خاصة عن « عادل » أصغر أبنائي . والله لو أنني اشتريت مثل رأس الغزال الذي يطل عليّ من فوق الرف المقابل ، لجاء عادل وعلق في القرنين الكبيرين حبلا وتأرجح عليه .

وضحكت .. ضحكت وحدي من الصورة التي رسمها خيالي ، وقطار الصعيد يزمجر ويشق الليل والمزارع والسكون .

وفجأة ، ذاب ضحكي . لعقته عن وجهي حقيقة قائمة – كيف يشتري الرجل عود قصب أو بيضتين وسميذة ، والقطار منطلق هكذا منذ ساعة ؟ أي والله . صحيح ! كيف ؟ وممن ؟ وقد خلفنا المحطة وراءنا بأميال . ثم خطر ببالي خاطر . عادت معه ابتسامتي : لعله في دورة المياه أو ذهب ليتمشى بين عربات القطار .

وعلى كل فمالي أنا وما للناس ؟ وأخرجت دجاجة « أم اسماعيل » ونزعت عنها الورقة التي لفتها بها مع رغيفين . ورحت آكل هانئا متلذذا ، أسلي نفسي بنفسي وأحكي لها الحكايات حتى شبعت وحمدت ربي . لكنني لم أنسه .. زميلي المجهول في السفر . فقد تركت له نصف الدجاجة مع رغيف .. لعشائه عندما يجيء . ثم لملمت العظام التي تخلفت من نصيبي في الدجاجة ، ووضعتها بعناية داخل الورقة وكورتها لألقيها من النافذة . ولكن تلك النافذة لم تحترم كهولتي وضعف ذراعي .. قاومتني بعناد حتى ضقت بها . فوقفت وسط الحجرة حائرا أمسك بكرة الورق بين كلتا يدي كأنني طفل كبير ساذج .. وأطعت أول دافع راودني للتخلص من تلك اللفافة .

انحنيت انحناءة خفيفة وألقيت بها تحت المقعد المقابل ومن فوري ، ندمت . غشيني شعور قوي بالذنب أقلقني . فانحنيت أكثر . أتحسس كرة الورق تحت المقعد لأستردها . وألقيها بمعاونة خادم القطار من النافذة أو في سلة مهملات . لكن الظاهر أن اللفافة كانت قد تدحرجت تحت المقعد بعيدا عن متناول يدي . فارتميت على ركبتي ورحت أحدق في الظلمة تحت المقعد . فلما اعتادت عيناي الظلمة واستطعت أن أميز المرئيات ، دارت بي الدنيا دورانا عنيفا . ومادت الأرض تحت ركبتي . فقد تسمرت عيناي في عينين مذعورتين هناك تحت المقعد حيث يختفي صاحبهما !

ولست أدري كم ظللنا من وقت هكذا : وهو منبطح على بطنه كأنما سقط من عل في حيز ضيق لا يسع أية حقيبة مهما صغر حجمها ، وأنا مستلق على ركبتي وخدي على الأرض !

وأخيرا – بعد لأي – عندما جمعت شتات نفسي المبعثرة من وقع المفاجأة . وهممت أن أتراجع انطلقت يده كالسهم وأطبقت على ذراعي تشلني مكاني .

فتحت فمي لأصرخ .. لأصيح .. لأنادي أحدا ، فلم يخرج لي صوت ! فأنا رجل على قدر حالي . ولم ألق من قبل في حياتي موقفا كهذا ولا أقل بكثير من هذا !.. سنوات عمري التسع والخمسون كلها . وسنوات عملي وكفاحي الخمس والثلاثون . وسنوات زواجي التي هي توأم لسنوات عملي . كلها كانت سنوات هادئة راتبة كأنها بحيرة في قلب صحراء بعيدة مجهولة الا من قليلين . يردون على عينها يشربون ويأكلون ويستريحون . ثم يشدون الرحال ويضربون في الأرض .. هؤلاء هم أولادي .

خلال سنوات زواجنا الأولى كان يرد الينا وافد جديد كل عام حتى أصبحوا دستة ! فبسطنا أنا وزوجتي أكفنا الى السماء نحمد الله ونتوسل في دعة أن يفتح أمامنا باب الرزق وسعة الحال حتى لا تجف البحيرة ويهلك واردوها ! وقد استجاب الباري عز وجل لابتهالنا وأنعم علينا بالستر والصحة ..

والأبناء الاثني عشر توظف منهم من توظف ، وتزوجت منهم من تزوجت ، ولله ألف حمد وشكر .. وتهادت سفينتنا كنسمة رقيقة حالمة .

وهكذا عشت أنا وزوجتي في سلام وأمان .. رجائي الهامس عندها أمر ، وحاجتها التي لا تجاهر بها استحياء بل تفضحها بها عينها ، عندي أنا واجب . اذا اقترحت أنا اقتراحا ، التقطته هي التقاطا ، تصغي اليّ مطرقة كأنها كلمات تأتيها من عل ، وتقول لأبنائنا :

— « أبوكم قال هذا ، لا بد من تنفيذه ! »

فيمتثل أبناؤنا ، ويكبرون وينجحون ويسعدون ، ويسعدوننا معهم .

والآن ماذا سيفعلون بعد موتي — أو بالأصح ، بعد مقتلي ؟ فطبعا سيقتلني هذا الرابض في الظلام تحت المقعد .. في قطار نصف الليل ، والصعيد حولنا رهيب غامض ، والليل كحل ، وضوضاء العجلات تئد أية استغاثة ، وأهل القطار مجهدون نائمون لاهون عني وعن مأزقي !

فأغمضت عيني — تماما كما يفعل أي طفل ما ليصد عن نفسه خطرا . ربما كان دوارا هذا الذي شعرت به .

ثم . يا للهول .. ما .. ما هذا ؟ انه بدأ يزحف خارجا !

تقهقرت سريعا ، أزحف بركبتي الى الخلف ، وعيني في عينه معلقة ، ويده لم تزل مطبقة على ذراعي !

فلما استوى واقفا على قدميه ، كدت أهوي وتخلخلت ركبتاي وكأنني مريض منذ سنوات . ووقفت الى جواره مطرقا كتلميذ مذنب .. أكاد لطوله ولقصري لا أصل الى كتفه . لكنني رفعت رأسي بسرعة عندما رأيته يجهش بالبكاء ؟

لساني عقد ، ولكن قلبي رق له . لقد كان فتى يناهز العشرين من عمره .. في مثل عمر « صفوت » ابني . لا بد أنه ركب القطار بلا تذكرة : مسكين .. انها ظروف الدنيا ، فلا ضير عليك . نظر اليّ ، ثم مسح وجهه الغارق في دموعه بكلتا راحتيه المبسوطتين وألقى بنفسه على المقعد ، وهو يلهث وكأنه قادم من مسيرة بعيدة .. مبهور الأنفاس ، مشعث الشعر ، زائغ النظرات ، مشتت الأعصاب .

وارتكنت الى الجدار من فرط الدهشة التي عقدت لساني وتفكيري. وعقدت ذراعي على صدري ، أرمقه في انبهار . ومرة ثانية ، تخاذلت ركبتاي ، ثم بدا لي فجأة أن أطمئن على حلقة مفاتيحي — مفاتيح في عهدتي . ربما تكون قد انزلقت من جيبي عندما ارتميت على ركبتي لأبحث تحت المقعد عن الجريدة التي لففت بها عظام الدجاجة .. تلك الحركة الرعناء التي ألقت بي في هذا الموقف الرهيب .

واطمأننت عندما ارتطمت يدي داخل جيبي بحلقة المفاتيح ، وانشرح صدري لصلصلتها .

ولكن ما هذا ؟!

ارتمى الشاب على ركبتيه أمامي ، يضم قبضتيه تحت ذقنه في قوة وتوتر حتى برزت عقل أصابعه شاحبة قد نضب منها الدم ، وهو يبتهل ويتوسل ويضرع :

— « حنانك ، سيدي ! رحمتك بي » .

لم أجد صوتي .

حناني أنا ؟ رحمتي به — أنا ؟

من منا المذعور ؟

وهو مسترسل وصوته أبح من فرط الذعر :

— « سوف أسلمها اليك .. البضاعة .. كلها . خذها . ها هي ذي كاملة غير منقوصة لم تمسسها يد ، لم أنتقص منها غراما واحدا . »

— غرام ؟!.. بماذا يهذي هذا الفتى . ؟

لم أفهم . ولم أخف عنه جهلي .

فجأر :

— « آه .. تماما أنت ، كما قالوا لي عنك تدّعي البلادة والغباء وتنكر شخصيتك المهمة دائما ولآخر لحظة ! »

فدفعت طاقيتي الى الأمام على جبهتي ، أحك ظهري في حيرة . نسيت أن أحكي لكم أني أحتفظ دائما بطاقية « كستور » في جيب سترتي لأدفيء بها رأسي أثناء السفر . أم الأولاد ، الله يسترها ، لا تنسى أبدا أن تدبر لي نصف متر من كسوة الشتاء لعمل هذه الطواقي التي لا غنى لي عنها في رحلاتي كل خميس .

دفعت طاقيتي على جبهتي ، أحك ظهري في حيرة وشرود : شخصيتي المهمة ؟!

قررت التفاهم معه . تنحنحت لأستجمع شجاعتي ، وما كدت أبدأ :

— « والله يا بني ... »

... حتى قاطعني ، يزحف على ركبتيه عند قدمي ، ويرفع لي وجهه المتقلص من ذعر :

— « أليست تلك صلصلة القيد الحديدي الذي تحتفظ به في جيبك للقبض عليّ ؟ » .

فصرخت بجزع :

— « قيد حديدي ؟! » وازدردت ريقي بصعوبة ثم ضممت أصابعي وهززتها تحت أنفه ، وأنا أقول له : « الله يهديك يا بني ، ويجعل هذه الليلة تمر بخير . كف عن هذا الكلام الرهيب ، لم هذه البشرى المخيفة ، أوقعت قلبي ، الله يسامحك ! »

واستدرت لأجلس وقد كاد يغمى عليّ . لكنه انقضّ يحتضن ساقي حتى كدت أتدحرج فوقه . فلما شعرت بذراعيه قويتين وقد كبلني بهما تكبيلا ، تلوت الشهادة في سري مستسلما وروحي في حلقي تتحشرج تكاد تفر ، وقد شعرت بأن ساعتي دنت ، وأن هذا المعتوه لا محالة سيقتلني وييتم صغاري !

ودفعت الفتى عني في محاولة أخيرة يائسة . فترك ساقي لكنه انقض يختطف يدي يلثمهما بجنون وعيناه مغلقتان تسح منهما دموع ساخنة . ثم سجن يدي المعروقتين الضعيفتين بين قبضتيه القويتين اللتين تشبهان كلابتين من صلب ، وراح يجأر في ضراعة :

— « أستحلفك بكل غالي يا سيدي ألا تتلاعب بأعصابي أكثر مما فعلت . انك تدعي التخاذل والشيخوخة والضعف ، ثم تنقض ! ولا يخيب انقضاضك أبدا ، أبدا !.. هكذا قالوا لي . ان أسلوبك الفذ الذي لا يطيش أبدا في الايقاع بنا نحن أرباب تلك المهنة .. أسلوب أستاذ

ضليع في حقلة متمكن من فنه بفضل علمه الغزيـــر » .

علم غزير ؟ أنا ؟ « أبو صبري » ؟ علم غزير ؟ هززت كتفي . والله رأس مالي لا يزيد على ايمان وأمانة ، لذا سلموني مفاتيح المخازن في الضيعة التابعة لوزارة الأوقاف .

فحاولت تصحيح معلوماته :

— « يا بني أنا رجل بسيط تجد مثلي آلافا يكدحون ويعملون جاهدين في تربية حفنة أبناء تربية صالحة لننفع بهم الوطن ! »

وهو على حاله ، كأنه أصم لا يسمع ، يهذي ويهذي كأنه في أسر حمى خبيثة حلت عقال لسانه :

— « تماما ، تماما : أنت ، بلحمك وعظمك ! معلوماتنا عنك تفيد بأن هذا طبعك . نكران نفسك لمن يتعرف عليك . أقبض عليّ من فورك وارحمني بالله عليك ، كف عن لعبة القط والفأر هذه التي تلعبها معي منذ وطئت القطار . لقد تفتتت أعصابي ، وتناثرت هباء ، وهلكن تماما من فرط التوتر والرعب اللذين تملكاني طوال الرحلة . اندسست بين المسافرين في قطار الليل فأوقعني سوء حظي في حجرة واحدة معك .. أنت من لم يحذرني قومي الا منه ! »

ثم رفع رأسه ليتطلع لحظة خاطفة من خلف زجاج النافذة ، وحبات كبار من عرق تلتمع وينضح بها وجهه مع كل خلجة من خلجاته . ثم صرخ بي :

« ها هي ذي أضواء محطة العاصمة تبدو . بربك ضع حدا لعذابي . أعرف أني هالك معك ! أعرف ألا فائدة من مقاومتك ! أعرف أن قوتك بقوة عشرين . أين القيد الحديدي ؟ ها هما يداي كبلهما .. خذهما .

وكان القطار حينئذ يندفع داخلا اطار المحطة وهو يطلق صفيرا طويلا ظافرا ، كأنما أتى بما لم تأت به الأوائل !

... والفتى يغرغر بصوت متحشرج ، ويقول : « أقبض عليّ ، وارحمني .. سأسير معك في هدوء ، فلم تعد بي أعصاب ! هدمتها أنت بهدوئك وبرودك ، تأكل وتضطجع لحظات ، ثم تغفو .. ثم تصحو .. وتتحرك ببساطة وحرية وأنا أتلوى تحت مقعــدك . ها هما يداي كبلهما خذهما . ! »

فتلقفت يديه بين قبضتي كلتيهما ، حتى يكف عن الصياح هكذا ! والتفت عنه وعن هذيانه ، ألصق أنفي بزجاج النافذة وأحملق بلهفة في الوجوه العديدة المزدحمة على الرصيف لعل أحدا من أبنائي جاء يستقبلني اليوم ، فيخلصني من هذا البلاء .

وما كاد القطار يهدىء من سيره استعدادا للتوقف ، حتى فتح باب حجرتنا وسدت عتبته حفنة من رجال الشرطة ، وعلى رأسهم ضابط .

وقد درت على عقبي بسرعة والضابط يقفز ويلقي بنفسه علينا ، ويتلقف يدي الفتى مني ، ثم يطبق على معصميه بقيد حديدي غليظ . في سرعة أسرع من مروق الخاطر تم هذا كله !

ثم التفت الضابط اليّ مبتسما :

— « أقدم لك بالغ الشكر يا أستاذ .. أستاذ .. »

فتحاملت وضربات قلبــي تصم أذني . أضيف :

— « محسوبك مدبولي البسطويسي » أمــين مخازن التفتيش .

فشد الضابط على يدي بقوة وامتنان :

« لقد ساعدت العدالة مساعدة فعالة بذكائك وفطنتك وشجاعتك ! »

قلت وأنا أربت صدري ، مطرقا :

— « العفو ، العفو ! لا شكر على واجب ! »

فأكد بصدق واخلاص :

— « صدقني ، لولا أنت لأفلت اللعين ، ولما تم القبض على أخطر تاجر مخدرات أرهقنا سنين طويلة ! »

فتأتأت أفأفيء :

— « تاجر .. ما .. ماذا ؟ هو فتى .. فتى وحسب .. و .. »

فقاطعني :

« فتى ؟ انه في الثامنة والثلاثين ويبدو وكأنه لم يتعد العشرين وتلك أبرز صفاته ! »

ثم أشار الى جنديين : « هاتوا الكيس ! »

فاستأذنت الضابط وارتميت الى أقرب مقعد ، أنكمش وألملم ساقي تحتي كطفل مذعور .. أوصالي مفككة ، وريقي جاف ، وعرق بارد غزير ينضح مني . وكادت عيناي تبرزان من محجريهما ، وأحد الجنديين ينزل رأس الغزال المتحجر عن الرف في داخل القطار ويضربه لينشق الجلد المفرغ عن المخدرات . ثم انثنى على الصرة التي ظننت بها ثيابا .

وعبقت الحجرة بالرائحة الغريبة النفاذة . فرماني المجرم بنظرة كالطلق الناري . وهو يفح ويصرصر من بين أسنانه :

— « اذن لم تكن تكذب عليّ بشيخوختك ووهنك ! لست اذن المخبر السري المشهور » .

فضحك الضابط وهو يتأملني :

— « فعلا ، انك تشبهه الى حد بعيد . الا أنه الآن في مهمة أخرى استدعت سفره السريع ..

وعندما غادرتني القافلة الصغيرة ، التفت نحوي الضابط ، يكرر شكره باسم القانون ، ثم ألحّ عليّ :

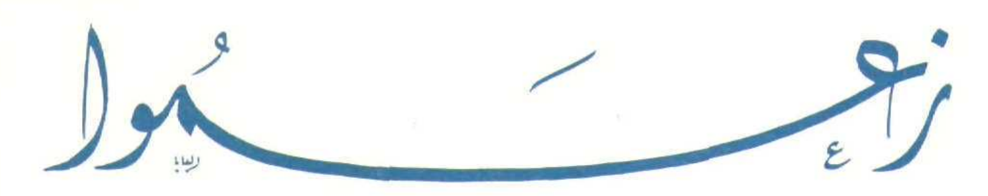
— « لا بد أن تتوجه غدا الى المحافظة لتتسلم جائزة مالية كبيرة لمعاونتك لنا في إلقاء القبض على هذا المجرم » .

فطار بالي الى بنتي « رقم أربعة » التي جاءها خاطب ، لكننا اضطررنا للاعتذار ، نتعلل بأمور كثيرة الا الحقيقة . مع أن البنت في عزها ، والشاب متعلم وابن حلال !

وعندما تخيّلت فرحة أمها لحظة تسمع مني عن النقود التي هبطت علينا ، هتفت فرحان جذلان :

— « ربنا فتحها علينا يا « بدرية » يا بنــتي جهازك حضر ! »

ألم أقل لكم منذ بدء الكلام انه صديقي العجوز — صديقي جدا ، قطار الصعيد هذا ؟ ■



للشاعر طاهر زمخشري

زعموا أنه سيرحل في الفجر ، ويبقي على الجدار المرايا
وعليها رؤاه تضحك للعين ، وتعطي الورود منها هدايا
وعلى الصمت من لغاه حديث ومن الرجع في السكون بقايا
وحفيف الأغصان ، خلف ستار الليل يسري بما تضم الحنايا
وعلى الزفرة الشجية مني قطرات مسفوحة من دماي
والنسيم العليل يخترق الغرفة بحثا عن موقعي في الزوايا
والرذاذ المبثوث من قطع السحب تباري انسكابه مقلتاي
علها تبرد الشجون ولكن لذعات الحريق زادت بكاي
ما ارتوينا من اللقاء ، ونار الوجد مسعورة تريد الضحايا
فاذا خافقان ذابا من اللوعة من قبل أن تشد المطايا

* * *

زعموا أنه سيرحل في الفجر ، فجادت زوافري بالبقايا
أهو البعد .. سارق يسلب الفرحة من خافقي ويذكي جوايا
ما ارتوينا من اللقاء فننأى ما ارتشفنا الوداد الا حكايا
وندي الأنفاس كان بها يشدو ، ويختال صيدحا في البرايا

* * *

هل ترى اللوعة التي تلهب الشوق أحست بين الدروب خطاي
فاستثارت فواجعي في الحنايا ثم غالت من راحتيّ مناي
من ترى ان نأى سيحمل نجواه ، وترضى به الجوانح نايا
فأنا بالحنين لهفة ملتاع ، وترجو من ناظريه العطايا
وأنا بالجوى على دربها الأخضر ما زلت أرتوي من أساي
مزق البعد مهجتي بالتباريح ، فناحت ولم تشد المطايا

* * *

زعموا أنه سيرحل في الفجر ، فسدت طريقه راحتاي
وتهيأت كي أذيب له روحي ، وأسقيه جرعة من هواي
علـه ان أحس حر لظاه لمّ حبل النوى وأدى التحايا
وهي من نظرة بها صارخ الفتنة يرمي قلوبنا بالمنايا
والسهام التي تريش تزيد الحب وقدا ، ومن فؤادي الشظايا

* * *

وبحبل النوى حزمت الأماني ثم ألقيتها لنار أساي
والجمال الذي أخاف عليه صورة لفها السنا في الثنايا
وهي في مسمعي تردد ألحاني ، ولكن وكرها في حشاي
كم بها غرد الفتون وغنى وأعاد الدجى على صداي
فاستطبنا الهوى وذبنا نشيدا وامتزجنا فهل تشد المطايا ؟ !



تأليف الشاعر : عدنان مردم بك
عرض وتحليل : الأستاذ أبو طالب زيان

لعل الذين كتبوا عن « العباسة » أخت الرشيد لم ينصفوا تاريخ هذه السيدة ، بل كان الأمر عند بعض الذين صاغوا هذه الحوادث التي لعبتها « العباسة » ، أو كانت سببا في حياكتها على مسرح التاريخ حينا ، أو مسرح السياسة حينا آخر ، لا يعدو التناول من زاوية التأثير العاطفي ، أو اظهارها بمظهر الأنثى التي أسلمت زمامها ، وسارت لا تريد الا هواها ، حتى قال المؤلف نفسه على لسانها ، مسوقا الى الغاية التي ينتهي اليها كل مؤرخ :

ما حيلتي فيما اقترفت
من الأذى وخلقت أنثى

والرأي عندي لا يحتاج الى أعمال فكر ، ما دمنا نركن الى التأريخ الصحيح . فالرشيد نفسه حين عقد لجعفر على العباسة ، لم يكن يغيب على باله ، أو يندّ على خاطره ، أن بين الاثنين من العواطف المتأججة ، ما لا يمكن أن يقف في سبيله ، حتى يشترط هذا الشرط الذي لا تسيغه الحنكة والتجربة ، ويصاب بالغضب حين يصل اليه في الوقت الذي يعلم فيه جعفر أن زبيدة تتربص به .

ومهما قيل من تعلات عن اسلام الرشيد زمام الأمور لجعفر ، فليس يغيب عليه طواياه ، وان قربه منه صهرا ، ووكل اليه خاصته يصرفها

دونه ، بعقل هو للرشيد ، وسياسة لا يعترض عليها الخليفة نفسه طوال فترة التقرب ، أو مدة الصحبة ، أو سني المصاهرة .

على أن أسباب نكبة البرامكة التي ردها ابن خلدون الى الدوافع السياسية البحتة ، هي أقرب ما تكون الى العقل ، والصق في باب كانت ترى « زبيدة » كسره ، لترى من ورائه العواصف تقتلع البرامكة ، ويرى العرب من طاقه مسرح آل برمك خاويا ، فيخلص الأمر كله لابنها ، دون غيره من سائر الأبناء .

وليس ريب في أن هذا هو الدافع في هذه القضية التي شغلت التاريخ السياسي بقدر ما شغلت التاريخ الأدبي هذا الزمان الطويل .

فما هي وجهة النظر التي يرتضيها شاعر يريد أن ينسج مسرحه ، ويبعث رسومه ناطقة على هذا المسرح الذي شحن بوجهات نظر كثيرة ؟

في اعتقادي أن الشاعر عدنان مردم أدار حوادث مسرحيته على رأي ابن خلدون ، أو هو كان متكأه في الحوار والتسلسل والنسج .. فالمشهد التلقائي الذي تقفه « صالحة » و « عاتكة » على شرفة في قصر الخليفة ببغداد ، تنصتان الى أهازيج الشعب وهم يحيون الرشيد وابنيه الأمين والمأمون ، لا يخلو من همس بينهما حين يصل موكب جعفر الى قصر الخليفة ، وتنظران اليه معجبتين ، وان كان اعجابهما يشوبه التوجس من الساعين الذين يريدون الوقيعة ، ويبغون الدس ، ويرتضون العواصف :

ان البواعث للأذى
يعزى الى خطل الهوى
عجبا ، وهل من حافز
يدعو « زبيدة » للأذى

ولقد أجاب الشاعر على هذا الحافز الذي دعا « زبيدة » الى هذا :

أو ليس « جعفر » خصمها
أبد الأبيد بما أتى
سلب ابنها في زعمها
شيئا أعز من المنى
وأتى له بمشارك
من دونه ليث الشرى
أطماعه البحر الخضم
وهل لبحر من مدى
وكأن ثاقب فكره
قدر اذا حمّ القضا

وفي المشهد الثاني تظهر الأميرة ، وهي مطرقة حزينة ، فتحادثها « صالحة » و « عاتكة » ، وان كانت « العباسة » نفسها تنحو باللوم على جعفر ، وتتوجس خيفة من هذا الذي يتربص به :

ما ضر جعفر لو تحاشى
النار أو حذر الشرر
ما باله وهو الأريب
يكاد يعثر من عور
من نام قرب النار لم
يأمن من النار الخطر

ويبلغ الابداع الشعري قمته حين يقول عدنان مردم في موقف اليأس الذي وقفته «العباسة» وهي تصور نفسها هذا التصوير الذي جنح الى النظرة الى « العباسة » ، كأنثى قضت عليها الوشايات :

أنا قصة تروى
وأشجاني على الدنيا حكاية
اني سئمت من المصير
وضقت من سخف الرواية
ما بال كل حليلة
نالت من الحب الكفاية
ومنعت عن نيل القليل
من المحبة والعناية
كم لوعة في أضلعي
عصفت تجلجل عن غواية
داريتها وكتمتها
خوف الوشاية عن دراية
أنا ريشة في عاصف
راحت تهاوى دون غاية

وينتقل الشاعر نقلة ليست بالجديدة ، وان كان السياق قد اقتضاها في الربط بين الحوادث اذ ليس يغيب عن الذهن ما يؤرق ليل « زبيدة » أو يقض مضجعها ازاء ما يأتيه الفرس نحو ابنها ، أو نحو العرب ، حتى تدع « العباسة » تفلت من بين يديها حين أتيح لها الاجتماع بها ، فتسائلها بتهكم قاتل عن صمتها واتهامها :

أم كان صمتك غفوة
النشوان حين يحلق ؟

وترد « العباسة » على هذا الاتهام ، ولكن ردها لا يغني « زبيدة » عن التعرض لما يدور داخل نفسها والتعريض به ، وان كانت « العباسة » نفسها تفصح عما بها ، وتحدد موقفها بين هذه الاتهامات :

انا نفثة الأوجاع مائجة بأضلاع الشهيد

وتتأرجح النظرة الحاقدة في جوانح « زبيدة » ، عندما تتعالى الأصوات محيية الرشيد وابنيه الأمين والمأمون ، وتعرض بالمأمون وتتهم أرومته ، وتذكر جعفر صراحة دون مبالاة ، وأطماع فارس وربيبتها منها في تقويض مجد العرب ، والقضاء على ابنها الأمين .

ويمضي الشاعر يصور موقف الرشيد من جعفر حينما مثل بين يديه ، بعد أن أوغر صدره عليه ، وضاق حنقا به .

وفي هذا المشهد تتجلى البراعة الشعرية في هذه المرآة العاكسة التي ينظر اليها جعفر من وجه ، وينظر اليها الرشيد من وجه آخر ، ثم لا يكون الا هذا الحديث الذي يردده الرشيد بينه وبين نفسه ، وصور الأطماع الفارسية ، تشدّه الى القضاء عليها ، ووأدها حيث تكون .

ثم ينتقل الشاعر الى هذه الصورة التي جسّمت الأطماع وكبّرتها في عقل الرشيد ، وهو ثاو ينتظر ما تأتي به العيون ، عاكف يترقب الأخبار علّ فيها ما يتذرع به فيما انتواه ازاء البرامكة .. وأيّ ذريعة أكبر في بابها من هذا الحدث الضخم الذي هز مشاعره ، الا أن يكون يحيى العلوي يطوّف آفاق البلاد يبيت له ، بعد ما أراح نفسه ، وهدأ باله بسجنه :

كشف الستر وانجلى
ناصعا عن فواجع
بات ما كان خافيا
أمس يجلى بساطع
يقتضي الأمر فطنة
قبل شحذ القواطع

ويبرز الشاعر « العباسة » ومعها « عاتكة » على هذا المسرح الواجم الحزين . وبخاصة بعدما بان أمر جعفر ، وانكشف ما كان خافيا ، وتظهر « زبيدة » وسط هذا العجاج الذي تناثر غباره ، وبين تهكمها ، فتمضي « العباسة » الى حال سبيلها ، بعد أن أعيتها الحيل معها في تبرير موقفها ، والدفاع عن وجهة نظرها . ولا ينسى الشاعر ، أن يضم الى تعبئة « زبيدة » شعور الرشيد ، بالحقد ، ما أرسله الشاعر أبو العتاهية في هذه الآونة من شعر ، وما كان يدخل بين الرسائل الى الرشيد مدسوسا ، غير ما كان يحرّض به الفضل بن الربيع .

ولا يفوت الشاعر الكبير أن ينطلق في مشهد الفكر والرأي الذي كان بين الرشيد وزبيدة ساعة احتدام الأزمة ، وبلوغها قمتها في المضي أو التراجع في الاندفاع ، أو النكوص ، حتى يكون جماع الرأي الذي يخرج بالرشيد من هواجسه ، ويدفعه الى ما انتواه ازاء البرامكة ، حتى قال الرشيد لنفسه بعد أن خرج الفضل من لدنه :

ان الدليل جلي
لمن يروم الدليلا
الحق فجر مبين
لا يقبل التأويلا
والحزم يأبى انتظارا
أو حيرة وذهولا

غير أن الشفاعة هنا بعد تعبئة الجو لا تجد من الرشيد مسمعا ، فالمصانعة التي أجراها الشاعر على لسان « العباسة » والردود المطولة التي لعب بها الرشيد ، لم تخرج به الا الى هذا الحكم :

أختاه ليس مع الهوى
حكم يدوم ويستقيم

وفي قصر جعفر ، يجتمع أشياعه ، ويستحثه أحدهم على الفرار ، فيأبى جعفر وان حضّ أتباعه على الرحيل ، مضحيا هو بنفسه .

والواقع أن مشهد الرؤية الواضحة سارت بالشاعر الى هذه الخاتمة التي اكتنفها الأسى من كل جهاتها ، حتى كان هذا المسرح الخاطف التي تغيرت عليه هذه المناظر الحزينة التي جعلت العباسة تقول :

دربي ودربك واحد
ان طال أم قصر السبيل

فيجيبها جعفر كاشفا ما كان يخبئه ، ويعمل من أجله :

اني رسمت نهايتي
بيدي وكنت بها البصيرا

ولم يكتف الشاعر في تفجيع هذه المأساة بما دار بين جعفر والعباسة ، تاركا الوداع يصور نفسه في أي وضع من الأوضاع ، بل جمع بين الثلاثة الذين يعنيهم الموقف : جعفر وأمه وزوجه ، حينما يدخل عليهم « مسرور » يناديه وأصوات السلاح تقعقع خارج القصر تنتظر رأسه . والبراعة هنا تمسك بالشاعر ، فتجعله يكشف بحذق عن ما بذات جعفر ، الذي ضاق بالأغلال وناء بالذل :

أماه من شمم الرجولة طـ
ـرح أغلال الذليل
ما خير عيش حف بالأوجاع
والداء الوبيل
كل الى عدم يحول
كمطرف الظل الظليل

ويمشي « جعفر » بتجلد يتقدمه « مسرور » ناظرا الى أمه ، التي تقع على الأرض ، وزوجه « العباسة » ، التي تهتف شاردة :

ما كنت أدرك غايتي
والكون يجري نحو غاية
أمشي ولا أدري المصير
من المسير أو النهاية
أنا قصة تروى وأشجاني
على الدنيا حكاية

على أنه لا يعنيني هنا في هذه المسرحية المقارنة ، أو الموازنة ، وانما حسبي أني أدل عليها ، لا داعيا أو موجها ، فالمسرحية عندي كسب أدبي كبير ، وثروة طائلة من ثروات العربية أولى بأبنائها أن يرجعوا اليها . ■



• أصدر الأستاذ عبد السلام الساسي الجزء الأول من « الموسوعة الأدبية » . وهو يشمل الحروف : أ ، ب ، ت ، ث . وقد صدّر لها معالي الشيخ محمد سرور الصبان .

• وكان باب السير والتراجم من أحفل الأبواب الأدبية بالنتاج الجديد ، فقد ظهر من هذه الكتب ما يلي : « نظير زيتون الانسان » جمع مادته الأستاذ عدنان الداعوق وأشرف عليه الأستاذ عبد المعين الملوحي ، « الجارم الشاعر – عصره ، حياته ، شعره » تأليف الأستاذ أحمد الشايب ، و « التيجاني يوسف بشير » للأستاذ هنري رياض ، و « المسعودي » للدكتور علي حسن الخربوطلي ، و « رفيق في الميزان » وهو دراسة عن الشاعر الليبي رفيق المهدوي ، و « مصطفى صادق الرافعي » للدكتور كمال نشأت ، ودراسة أخرى عن « الرافعي » للأديب العراقي الأستاذ مصطفى نعمان البدري ، و « صاحب الأغاني أبو الفرج الأصبهاني » للدكتور محمد أحمد خلف الله . وأصدر الأستاذ صبحي الجيار الجزء الأول من سيرة حياته بعنوان « ربع قرن في القيود » يصوّر اليه كفاحه مع المرض وصبره على آلام هذه فسنوات الطوال .

• علامة تونس الراحل الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب خلّف ثروة نفيسة من الكتب المخطوطة أهمها « كتاب العمر » وهو يقع في أجزاء متعددة . وقد ألفت لجنة من الأدباء لإخراج هذه الكتب . ولعل آخر ما نشر للفقيد كتاب كبير في جزءين عنوانه « ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية » .

• من كتب التراث التي حققت وصدرت أخيرا « جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك » لأبي عبيد البكري وقد حققه الأستاذ عبد الرحمن علي الحجي ، و « الضوء المنير المقتبس من مذهب الامام مالك بن أنس » وهو أرجوزة تقع في ٢٤٠٠ بيت ألفها المرحوم محمد الفطيسي وحققها الأستاذ الطاهر أحمد الزاوي ، والجزء الثالث من « خزانة الأدب » لعبد القادر البغدادي وتحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون ، و « نفاضة الجراب في علالة الاغتراب » للسان الدين بن الخطيب وتحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ، و « المدارك » للقاضي عياض وقد حققه في ثلاثة مجلدات الدكتور أحمد بكير محمود ، و « ديوان طهمان بن عمرو الكلابي » شرح أبي سعيد السكري وتحقيق الأستاذ محمد جبار المعيبد .

• دراسات أدبية ولغوية جديدة ظهرت منها « القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية » للدكتور عبد العال سالم مكرم ، و « الواضح في شرح مشكل شعر المتنبي » للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ، و « دراسات في الادب الحديث » للأستاذ بشير الهاشمي ، و « رحلة الأدب العربي الى أوربا » للأستاذ محمد مفيد الشوباشي ، و « النقد الأدبي في العراق » للدكتور أحمد مطلوب ، و « حياة الأدب الفلسطيني الحديث » للدكتور عبد الرحمن ياغي ، و « الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي » للدكتور يوسف خليف ، و « الأدب الشعبي في ليبيا » للأستاذ محمد سعيد القشاط ، و « نوافذ أدبية » للأستاذ نسيم نصر .

• مسرحيتان شعريتان جديدتان صدرتا أخيرا ، هما « الملكة زنوبيا » للأستاذ عدنان مردم و « نساء وأفاعي » للأستاذ وديع ديب .

وأصدر الدكتور علي الراعي دراسة عن المسرح عنوانها « الكوميديا المرتجلة في المسرح المصري » ، كما صدرت دراسة عن المسرح اليوناني عنوانها « الدراما الاغريقية » للدكتور ابراهيم سكر

• وفي الأدب الروائي صدرت رواية « النصيب » وهي حلقة جديدة في خماسية « الساقية » للأستاذ عبد المنعم الصاوي ، ورواية « المصير » للأستاذ يوسف جاد الحق ، ورواية « ذات الهمة » للأستاذ عباس خضر . وأصدر الأستاذ عز الدين المدني مجموعة أقاصيص عنوانها « خرافات » .

• من الكتب الدينية الجديدة « الرسول في رمضان » للدكتور علي حسن الخربوطلي ، و « محمد في الخالدين » للأستاذ محمد عطا ، و « خواطر وأحاديث » للشيخ أحمد حسن الباقوري ، والجزءان التاسع والعاشر من « التفسير القرآني » للأستاذ عبد الكريم الخطيب .

• دواوين جديدة ظهرت أخيرا منها « أنفاس الربيع » للأستاذ راشد الزبير السنوسي ، و « قصائد على زجاج النوافذ » للأستاذ معين بسيسو ، و « النور من الداخل » للأستاذ محمد فايز .

• من الكتب العلمية الجديدة « النباتات الطبية » للدكتور عبد العزيز شرف ، و « تكنولوجيا الأسماك » للدكاترة مصطفى صفوت محمد ومحمود فهمي حسين ويحيى محمد حسن ، و « استراتيجية صيد الأسماك » للدكتور جرجس أتناسي بطرس ، و « مقاومة الآفات » للدكتور محمود زيد ، و « كيمياء مبيدات الفطريات » للدكتور أحمد سيد النواوي ، و « معجم التشريح » انجليزي – عربي للدكتور فهيم ميخائيل أبادير ، و « معاملات اللبن السائل » للدكتور جمال الدين محمد صادق وعبده السيد شحاته .

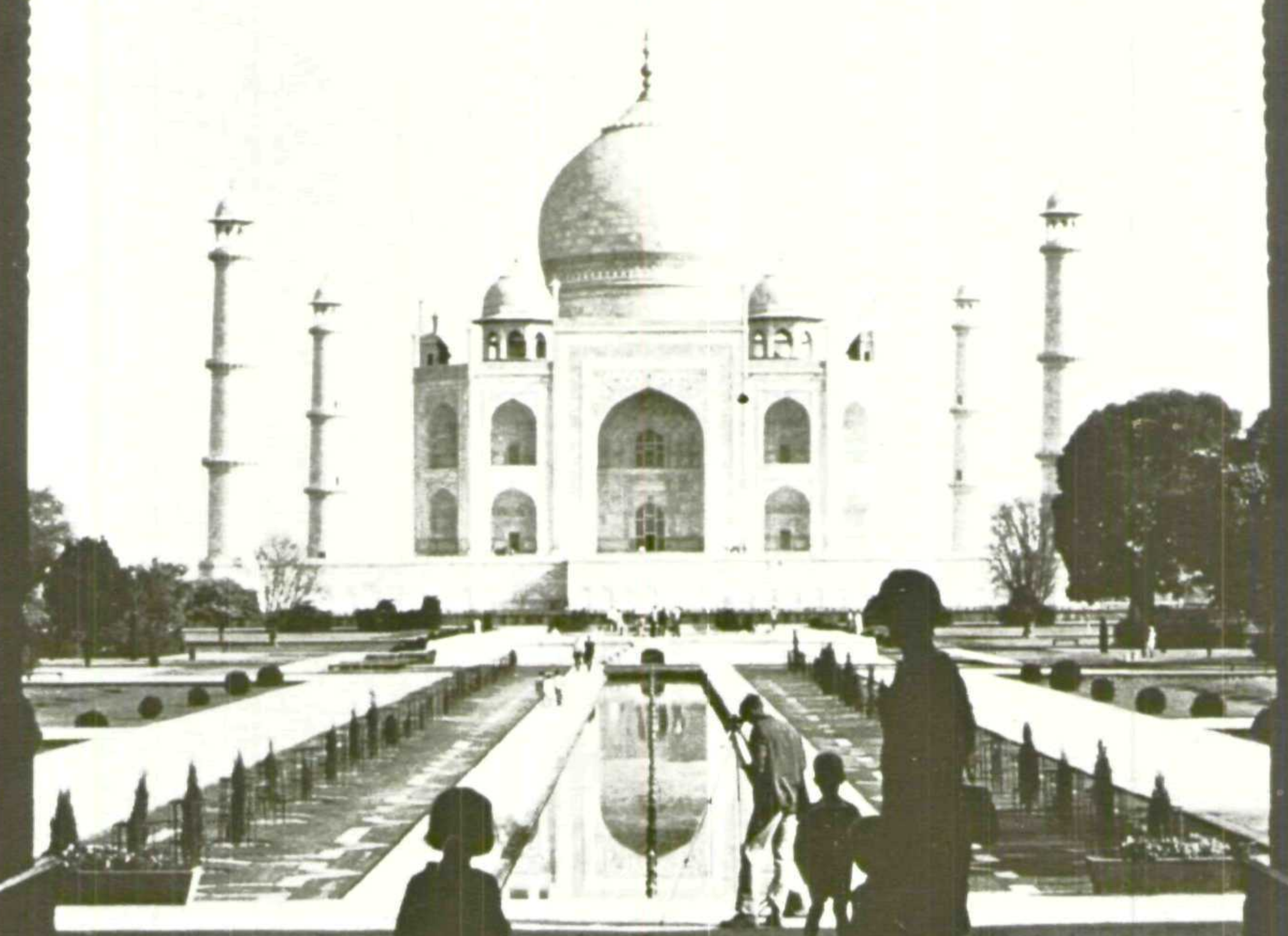
• في الاقتصاد والقانون ظهرت طائفة من الدراسات منها « النقود والمؤسسات المصرفية » للدكتور نبيل سدرة محارب ، و « النظرية الاقتصادية » للدكتور صلاح الدين الصيرفي ، و « الاقتصاد التحليلي » للدكتور حسين عمر ، و « تقنين المرافعات في ضوء القضاء والفقه » للأستاذ محمد كمال عبد العزيز .

• أصدر معهد البحوث والدراسات العربية كتابا بعنوان « عبد الوهاب عزام في حياته وآثاره الأدبية » ، وهو مجموعة محاضرات كان قد ألقاها الدكتور محمد زكي المحاسني عن هذا الأديب الراحل .

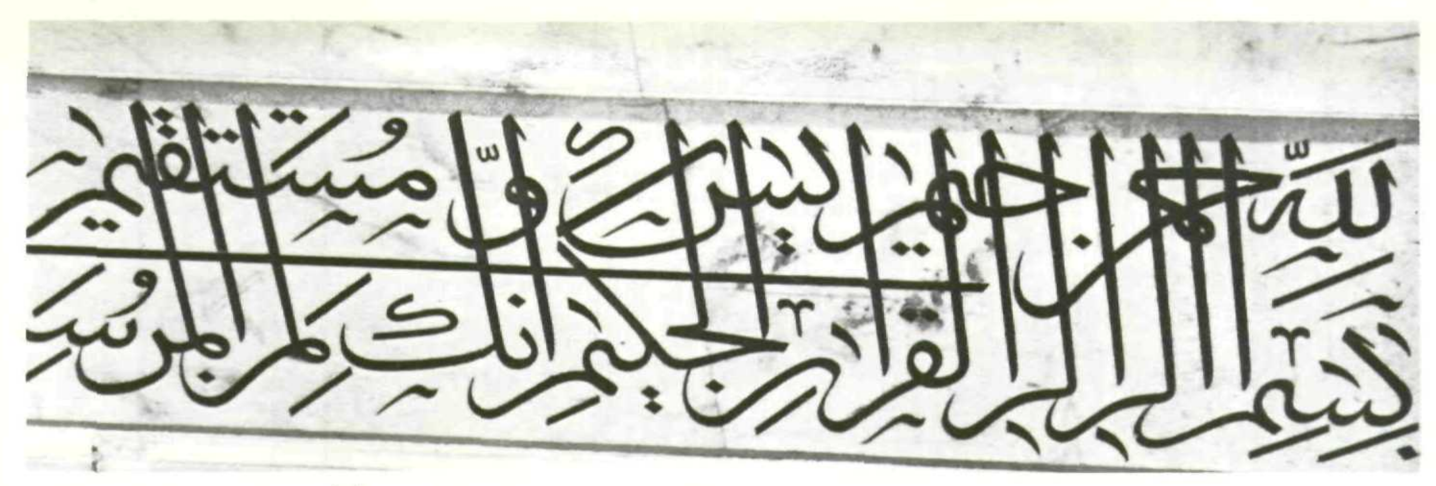
• اعترافا من مجمع اللغة العربية بدمشق بأيادي رئيسه الراحل العلامة الكبير الأمير مصطفى الشهابي على الضاد ، أصدر دراسة ثمينة عن الأمير وآثاره كتبها الدكتور عدنان الخطيب عضو المجمع ■

تاج محل

تحفة الفن المعماري المغولي



باليشب من البنجاب والبلور من الصين والفيروز من التبت واللازورد من سيلان والمرجان من الجزيرة العربية والجزع من بلاد فارس شاد الامبراطور "شاه جهان" في ذكرى زوجه الغالية "أرجوماند بانو بيجوم" بناء لايزال إلى يومنا هذا منتجعاً للعديد من الزوار، يفدون إليه من كل حدب وصوب. فتشده عيونهم بروعة بنائه وحسن تنسيقه وتصميمه!.. ذلك البناء هو "تاج محل" تحفة الفن المعماري المغولي في شبه القارة الهندية.



النقوش العربية تحلي صفائح المرمر في أكثر من موضع في بناء تاج محل .

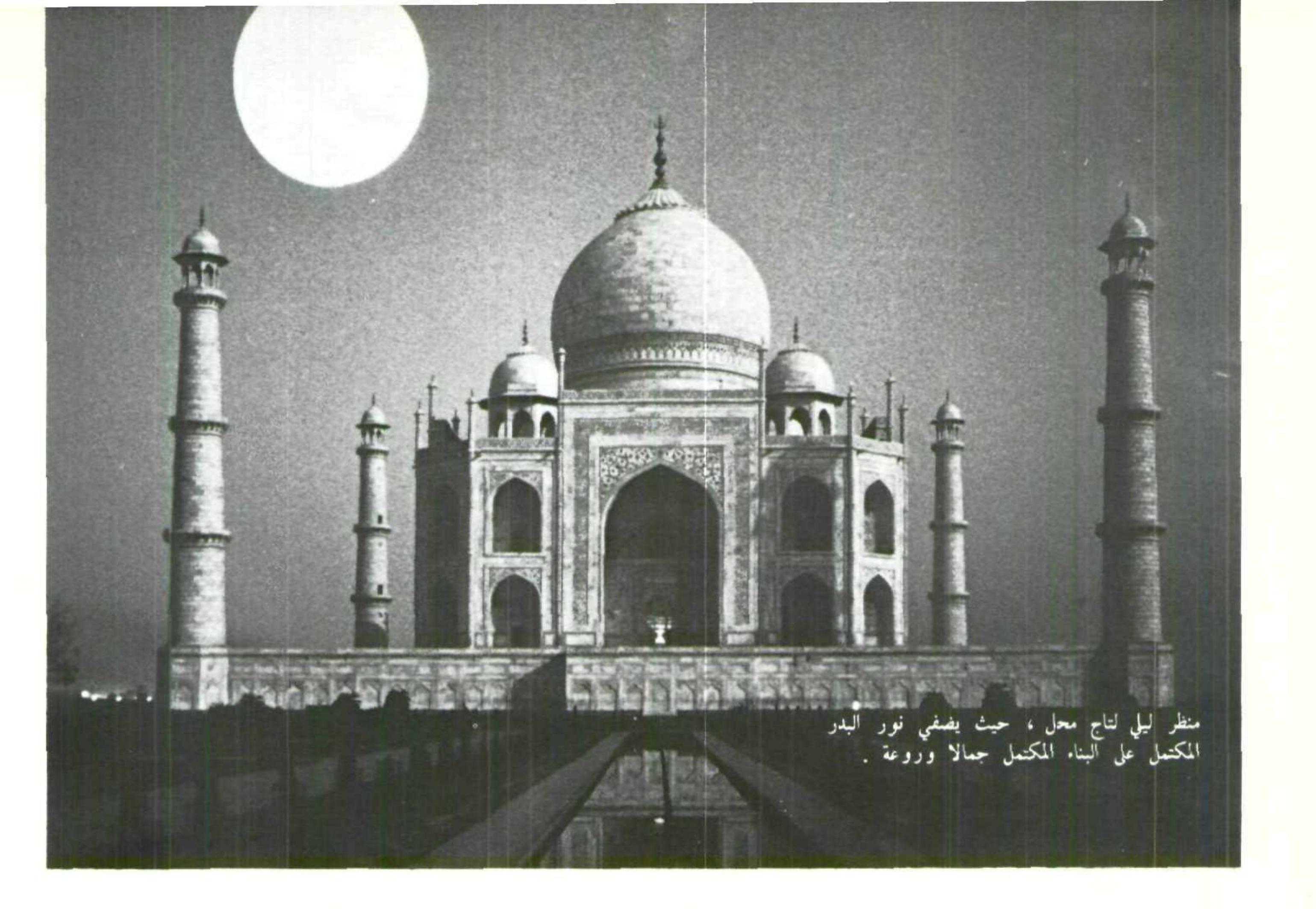
تاج محل ، وقد عكست صفحة الماء في البركة جزءه العلوي بتفصيل خلاب .

ولد « شاه جهان » عام ١٥٩٢م ، وهو سليل الأباطرة المغول الذين زحفوا من افغانستان عام ١٥٢٦ ليقيموا دولة اسلامية سيطرت على معظم الأراضي الهندية حتى عام ١٨٥٧ . وعندما تسلم « شاه جهان » مقاليد الحكم عام ١٦٢٧ حاول القضاء على معظم أقاربه من الرجال خشية أن ينافسوه ، فاتسم حكمه بالجور والقسوة . بيد أنه من ناحية أخرى كان عرضة لتأثير زوجه « آرجوماند » فانطبعت شخصيته بطابع آخر اصلاحي .

تزوج الأمير « شاه جهان » الحسناء « آرجوماند » عام ١٦١٢م ، وكان في الحادية والعشرين من عمره ، وكانت هي في التاسعة عشرة . وكان الزوجان الشابان متلازمين دائما ، وكانت « آرجوماند » تحاول باستمرار أن تحثه على الاصلاح وعلى اتباع الطرق السليمة مع خصومه . وعندما توّج امبراطوراً أصبح بلاطه بتأثيرها مقصد الأدباء والشعراء ورجال الفكر . ولا يزال المؤرخون يرجعون الى فترة الثلاثين عاما التي حكم البلاد خلالها كفترة ذهبية في العهد المغولي ، لا سيما في مجالي الأدب والعمران .

ان فن المعمار المغولي هو مزيج من الفن المعماري الاسلامي والهندي والفارسي ، ويبدو ذلك واضحا في القباب العريضة والمنائر المستديرة والأقواس المدببة . وقد بلغ هذا الفن شأوه في عهد الامبراطور « جهان » متمثلا في « الجامع الدرّي » في « أجرا » وفي « الجامع الكبير » في دلهي المدينة التي نقل الامبراطور « جهان » بلاطه اليها في أواخر عهده .

ومع أن « تاج محل » ، هو أجمل أثر معماري مغولي ، بل ربما يكون أجمل بناء في العالم



منظر ليلي لتاج محل ، حيث يضفي نور البدر المكتمل على البناء المكتمل جمالا وروعة .

من الناحية المعمارية ، الا أنه لا قيمة دينية له ، فقد نهى الاسلام الحنيف عن اقامة الصروح فوق القبور . وهو يظل يتشح بمسحة حزن ، لأنه حصيلة حالة شعورية متدفقة انتابت « شاه جهان » أثر وفاة زوجه الحسناء عن سبعة وثلاثين ربيعا . وكانت قد توفيت عام ١٦٣١م بعد ١٨ عاما من زواجها ، وهي حامل بطفلها الرابع عشر !

وقد شاركت الامبراطورية بأكملها امبراطورها المفجوع بزوجه بحداد دام سنتين كاملتين بيد أن « شاه جهان » ما لبث ان انفك من اسار فجيعته ، ليبدأ تنفيذ مشروع « تاج محل » الضخم الذي طالما شغل باله ، والذي أشغل نحوا من ٢٠٠٠٠ بنّاء وفني معماري مدة تبلغ ٢٢ عاما .

بدأ الامبراطور أول ما بدأ باستنفار المعماريين والفنيين من شتى مناطق امبراطوريته ، ومن الشرق الأوسط وآسيا وأوروبا . وجلب خبراء بناء القباب من اسطنبول ، والحجارين من بخارى ، والخطاطين من بغداد ، وخبراء المعادن من « بوردو » بفرنسا . أما مواد البناء فقد جلبت من أشهر مصادرها في مختلف بقاع العالم ، لتكون الأجود والأفضل .. فجلب اليشب(١) من البنجاب ، والبلور من الصين ، والفيروز من التبت ، واللازورد من سيلان ، والمرجان من الجزيرة العربية ، والجزع (٢) والجمشت(٣) من بلاد فارس . وأربت تكاليف ذلك كله على ما يوازي ٤٥ مليون ريال . وقد صمم بناء « تاج محل » مهندس معماري معروف هو « الأستاذ عيسى » . وقد أولى المغول التصميم عنايتهم الفائقة ، لأن التقاليد المغولية تحظر اجراء تعديلات على البناء بعد اتمامه . لذلك استلزم الأمر أن يصمم « تاج محل » بمنائره وقبته ومسجده ، وقاعات الاستقبال فيه ، وغرف الخدمة ، والحدائق ، والبرك ، والأسوار ، والبوابات وان يبني ذلك كلا متكاملا ..

وحتى بعد أن أنجز البناء ، ظل « تاج محل » يشغل وقت « شاه جهان » وأفكاره ، فقد كان يقضي أوقاتا طويلة الى جانب قبر زوجه ، وكان يتمنى أن يدفن الى جانبها في بناء مماثل على الضفة المقابلة من النهر يقام من الرخام الأسود ، ويتصل بتاج محل بقنطرة من الفضة الخالصة . ولكنه مرض قبل أن يحقق أمنيته تلك ، ثم ما لبث ان سقط عن كرسي الحكم ، وكان ذلك عام ١٦٥٦م ، وتوفي في العام التالي ، ودفن في « تاج محل » الى جانب زوجه ، وأصبح المثوى الذي اختاره لها مثواه هو أيضا .

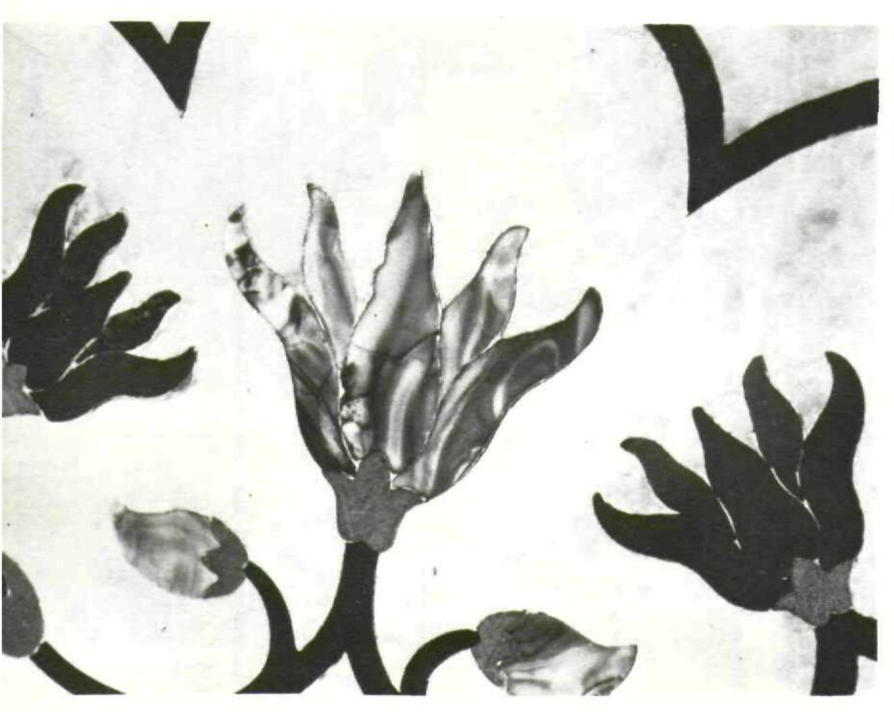
والآن ، وبعد ثلاثة قرون ونيف ، لا يزال « تاج محل » كما وصفه كاتب انجليزي : « على درجة من الاتقان من الناحية المعمارية لا يمكن أن توجد في أي عمل آخر أنجزه الانسان ! . أو كما وصفه أحد الشعراء : « قصر أخاذ يحبس على المرء أنفاسه جمالا وروعة وحسن بناء ! » .

يقوم بناء « تاج محل » في مدينة « أجرا » بالقرب من دلهي في رقعة من الأرض مستطيلة ، طولها ٥٨٠ مترا وعرضها ٣٠٤ أمتار وتقع في محاذاة نهر « جمنا » ، وتتميز بالحجارة الرملية الحمراء اللينة .. الموقع الذي يضفي على البناء جمالا وروعة .

وتتوسط تلك الرقعة حديقة مربعة الشكل طول ضلعها ٣٠٤ أمتار ، فتخلف في طرفيها الشمالي والجنوبي مستطيلين متشابهين ومتساويين مساحة ، طول الواحد منهما ٣٠٤ أمتار وعرضه

---

(١) حجر كريم ، لونه أخضر ضارب الى السواد .
(٢) العقيق اليماني .
(٣) حجر كريم أرجواني اللون .

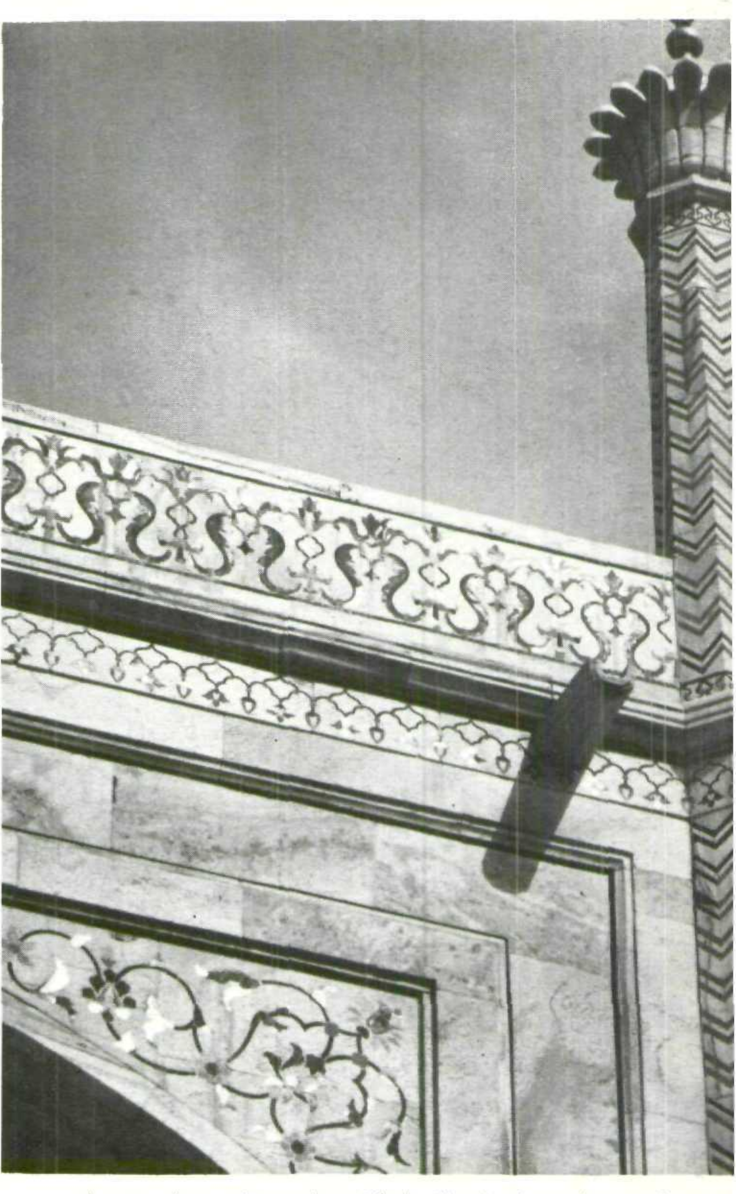


الزهور والزنابق الملونة التي ترصع المرمر .. من المشاهد الرائعة التي يؤخذ الزائر بها في تاج محل .



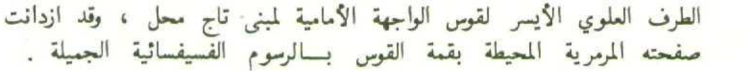


الجزء العلوي لاحدى منائر مسجد تاج محل الشاهقة التي تعكس أصالــة الفن المعماري الاسلامي .



جانب من احدى واجهات المدخل الرئيسي لمبنى « تاج محل » تزينها النقوش العربية والرسوم الزخرفية . تصوير : برنت مودي





الطرف العلوي الأيسر لقوس الواجهة الأمامية لمبنى تاج محل ، وقد ازدانت صفحته المرمرية المحيطة بقمة القوس بـالرسوم الفسيفسائية الجميلة .

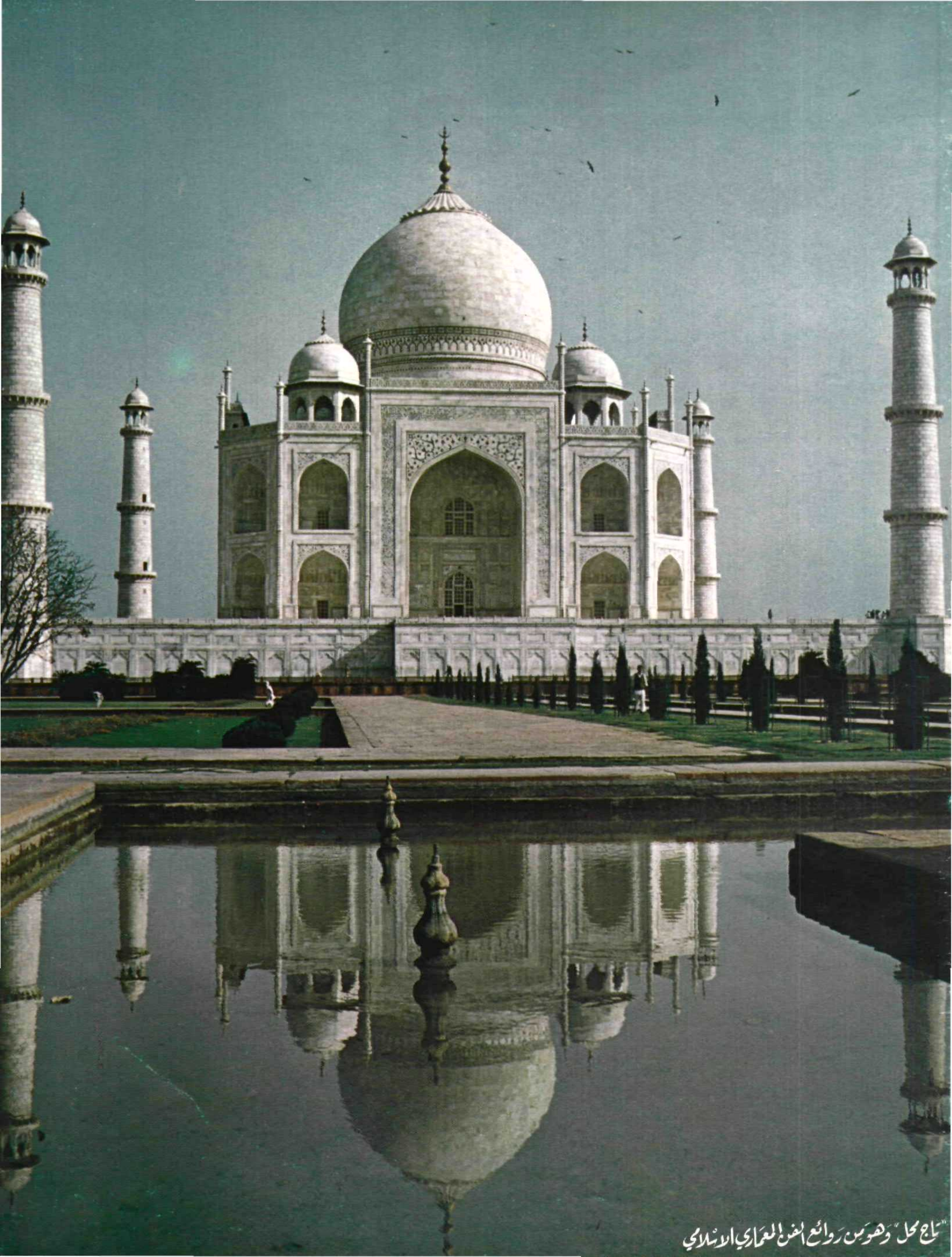
١٣٦ مترا . ويحتوي المستطيل الجنوبي على مرافق الخدمة والاسطبلات ومنازل الحراس والبوابة ، في حين تتوسط الحديقة بركة تنعكس فيها صورة البناء التذكاري الفخم الذي يقوم في المستطيل الشمالي في محاذاة النهر . والى جانب تاج محل يقوم مسجد وبهو استقبال متشابهان تماما ، أشيدا بحجارة حمراء رملية تحد من سطوع الرخام الأبيض الذي بني منه تاج محل القائم بينهما على منصة من مرمر مربعة الشكل ، طول ضلعها ٩٥ مترا ، وارتفاعها ٥,٥ من الأمتار . في حين تقوم في أركان المستطيل الشمالي أربع مآذن متماثلة ارتفاع كل منها ٣٨ مترا .

أما مبنى « تاج محل » نفسه فمربع الشكل ، وان كانت أركانه الأربعة مقتطعة قليلا بحيث تبدو قاعدته على شكل ثماني غـير متساوي الأضلاع ، ولكل واجهة من واجهاته الأربع باب مفتوح مقوس يبلغ ارتفاعه ٣٣ مترا ، وسقفه عبارة عن قبة عالية يعلوها هلال يبلغ ارتفاعه عن مستوى أرض الحديقة ٧٣ مترا . ولعل ما يسترعي اعجاب زائري « تاج محل » ويستثير دهشتهم هو روعة التنسيق ، وفخامة التصميم ، وجمال الزخرفة ، فالحجارة الكريمة ، التي طعم بها رخام « تاج محل » على هيئة نقوش عربية ورسوم وزخارف تجعل من البناء تحفة فنية معمارية رائعة.

أما داخل البنـاء فقد دفنت الامبراطورة والامبراطور تحت قبة أخرى ارتفاعها حوالي ٢٤ مترا تتخللها أشعة الشمس الـتي تنفذ من خلال كوى الاضاءة المرمرية المشبكة الرائعة التصميم . وتلك الكوى حدت بأحد المؤرخين أن يقرر : « ان المغول شادوا بنيانهم على النحو الـذي اتبعه التيتان »(١) غير أنهم أضفوا على بنائهم لمسات أبرع الفنانين أو الصاغة فأفردوا لتاج محل الجمال والكمال المعماري ■

اعداد : ح. ح.
عن « أرامكو وورلد »

(١) قوم أقوياء عمروا الأرض قبل سكان جبال (أولمب) .



"تاج محل" وهو من روائع الفن المعماري الاسلامي



المعمل العائم لفرز الغاز من الزيت الذي
استحضرته أرامكو مؤخراً من اليابان
لاستخدامه في المنطقة المغمورة بالسفانية

تصوير: شيخ أمين